القسم الأول

مثقفوا البلدان النامية
النشأة والتطور

الفصل الأول

الدلالات والمفاهيم النظرية

معنى الثقافة :

ربما يكون من الأهمية بمكان في بداية هذا البحث أن نحدد ماهية الثقافة والمثقف وخواص كل منهما وعلاقته بالآخر ، وذلك حتى لا نتوه بقارئنا العزيز من أول خطوة في متاهات المفاهيم الشائعة والسطحية لمعنى الثقافة والمثقف ، والبعيدة عن العرف المعاصر للدراسة والبحث العلمي ومناهجه المنطورة في علم الاجتماع والعلوم الانسانية بصفة عامة ٠

فالثقافة ليست هي ما تقوله وتنشره أجهزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية ، أو هي ما يكتبه المثقفون ٠ وليست مفهوما مرادفا لهؤلاء المثقفين ومشروطا وجودها بوجودهم ، بحيث يجيز البعض لأنفسهم الحكم بأن أي مجتمع أو جماعة لا تتوفر لديها جماعة راقية من المثقفين والمتعلمين ووسائل الطباعة والنشر والتثقيف والتعبير الراقي من شعر ومسرح ومقالة ونحوها فانه مجتمع أو جماعة تعيش بلا ثقافة والعكس بالعكس ، كما هو المفهوم الشائع الى درجة الظن الساذج بأنه لا ثقافة بغير مثقفين ٠ واذا جاز القول بأن ما يصدر عن تلك الأجهزة وما يكتبه ويفهمه هؤلاء المثقفون هو جزء من الثقافة وتعبير عنها بشكل ما ، الا أن ذلك لم يكن قط هو مفهوم الثقافة أو الثقافة نفسها كما يظن الكثيرون بأي حال من الأحوال ٠ ان الثقافة الحقيقية ـ كما يقول لينين ـ لم تنبثق من مكان مجهول ولم يخترعها الناس الذين يقولون عن أنفسهم أنهم اختصاصيون في ميدان الثقافة البروليتارية ، كل ذلك سخف وهراء ، ينبغي أن تكون الثقافة البروليتارية هي التطور المنطقي لمجمل المعارف التي صاغتها الانسانية تحت نير المجتمع الرأسمالي ، ومجتمع الملاكين العقاريين(١) ٠

---

(١) في الثورة والثورة الثقافية ، دار التقدم ، موسكو ، ص ١٢٢ ٠ لاحظ ايضا ان كلمة بروليتاريا في النص لا تحد قط بمضمونها السياسي من المفهوم الشامل لمعنى الثقافة ، فهي الى جانب مدلولها السياسي الذي عرفت به كثيرا تحمل مدلولا اجتماعيا عميق الدلالة ، لأنها توازي كلمة (شعبي) تماما ، ولذلك فان مدلول الثقافة البروليتارية تعني ثقافة الشعب الأكثر عمومية وشمولا ، وهي الثقافة الحقيقية وليس ثقافة فئة أو طبقة اجتماعية بعينها ٠

فالثقافة بمفهومها الأكثر شمولا ووفقا للمفهوم العلمى وبأبسط تعبير محدد هى الصورة الأكثر صدقا وارتقاء للواقع فى ذهن الانسان وأداة تنظيمه وتطويره • أو هى كما يؤكد قادة الفكر العلمى عامة ، الانعكاس الذهنى لتعامل الانسان مع الطبيعة والمادة عبر تاريخه الطويل •

وهناك الكثير من المفاهيم والتعاريف الكلاسيكية السابقة لهذا التعريف العلمى الشامل كانت تصدرها الكثير من الشعوب والأمم المعاصرة كتعبير عن العواطف القومية والتاريخية وبدافع الحماس لها ، بل وأحيانا كمبررات لممارسة التسلط الاستعمارى والعنصرى وادعاء التفوق النازى • أو كمحاولات أولية باهتة لتحديد ماهية هذه القضية الهامة المتعلقة بمعنى الثقافة منذ وقت طويل •

فالانجليز مثلا يقولون على لسان ممثلهم تايلور Taylor فى تعريفه الكلاسيكى القديم للثقافة بأنها ذلك الكل المعقد الذى يتضمن المعرفة والمعتقدات والقانون والأخلاق والعادات وأى قدرات وعادات يكتسبها الانسان كعضو فى المجتمع • وتلك محاولة مبكرة لتحديد معنى الثقافة • أما الألمان فانهم قد اتجهوا بدافع من الاحساس القومى بالتفوق والعراقة التاريخية التى افترضها مفكروهم لأنفسهم ولشعبهم ، اتجهوا الى تعريف الثقافة بأنها مظهر روحى أصيل وحر للتجمع البشرى مجسدا فى شعبهم فقط ، وذلك خلاف ما يراه الأمريكان الذين لا يملكون تاريخا يتجاوز المائتين عام حيث يعرفون الثقافة والحضارة بأنها هى ما نحن it is us فى الوقت الحاضر وأن المدنية هى ما نستعمله what we use كما يقول ماكيفر • ويرى الفرنسيون بزعامة دور كايم أن الثقافة هى ظاهرة اجتماعية محلية غير قادرة بطبيعتها على الحركة والانتقال دون أن تتغير • ويمثل وجهة النظر العربية الأكثر قدما وكلاسيكية بالنسبة لكل ما سبق العلامة ابن خلدون حيث يعرف الثقافة والحضارة بأنها الحالة المقابلة للبداوة واللاحقة لها وهى آتية من التحضر ، أى الاقامة فى الحضر(٢) •

والثقافة بالمفهوم الأكثر جدة ومعاصرة فى نطاق العلم الاجتماعى ، وكامتداد متطور للمفهوم العلمى الشامل للثقافة السابق ذكره وبتفصيل

---

(٢) انظر حمود العودى : المنظور العلمى للثقافة ، دراسة خاصة عن المجتمع اليمنى ، طبعة القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١١ و ١٢ •

أكثر ، هى مفهوم ذى شقين رئيسيين : فهى من جهة تشكل مجموع ما يباشره الفرد أو الجماعة من فعاليات وممارسات تجاه الطبيعة والواقع المادى بحكم وجوده فيه ، وما يقوم به من عملية تحويل حضارى فى تشكيل هـذا الواقع واعادة صنعه فى شـكل منجـزات وأدوات مختلفة ، وهى من جهة أخـرى أو فى جانبهـا الآخر تشكل مجمـوعة المقاييس الذهنية والنظم والمعـايير الاقتصادية والأدبية والأخلاقية فى ذهن الانسـان الناجمة عن مجموع تلك الفعاليات والممارسات والمنظمة لها فى الوقت نفسه ٠

الأمر الذى قد نختلف فيه فى هذا الشأن مع بعض الباحثين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين بالذات الذين ما يزالون يفصلون فصلا حادا فى تعريفهم للثقافة ، بين الجانب المادى والجانب الذهنى الى حد افتراض وجود ثقافتين مادية ولا مادية ، وذلك بنـاء على رأى برجوازى قديم صـاغه (أوجبرن) فى هذا الشأن لم يعد صالحا بالضرورة ، ونحن لا نرى أهمية لهذا الفصل الا باعتباره تصنيفا فنيـا ومنهجيا وليس تقسيما موضوعيا ، الأمر الذى يؤكده الدكتور محمد الجوهرى بقوله : ان هـذه التقسيمات بين العنـاصر المادية وغير المادية تقسيم مصطنع لا يستهدف سوى تيسير البحث العلمى ، وذلك أن الثقافة كما نعلم هى كيان واحد تربط أجزائه علاقات تفاعل كثيفة لا تسمح بهذا الفصل الا للأغراض النظرية فقط(٣) ٠

فاذا كان من الجـائز اعتبـار تشكيل الانسـان للمادة واعادة صنعها فى شكل أدوات مختلفة كتعبير وترجمة لمفاهيمه الذهنية شكل من أشـكال الثقافة أو جانب منها ، الا أنه لا يمكن اعتبار المادة نفسها ثقافة قائمة بذاتها فنجزم بوجود ثقافة مادية وأخرى لا مادية ، فالمادة والفكر أو الواقع المـادى والذهنى أو النظر والعمل أو الواقع والفـكر ، كلها قضـايا لم تعد قابلة للتجزئة ، ذلك أن النشـاط الذهنى للانسـان لا يبدأ من فـراغ ولا يقوم بافناء المادة أو خلقها من العدم ، ولكنه يعكسها ويعبر عنها بصورة أرقى ٠

فالثقـافة من وجهة النظر الاشتراكية العلمية والتـاريخية أيضـا هى النهـوض الروحى الـكامل للشعب فى مختلف مجـالات الفـكر والفن والأدب وكل ما أنتجه الانسـان من خيرات مادية ، وهى تتحقق على

---

(٣) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضـايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية - الطبعة الأولى ١٩٧٨ ص ١٠٦ ٠

أساس النهوض المـــادى للشعب ، ولا يمكن الفصل بين النهوض الروحى والمادى فكلاهما يكملان بعض ويشكلان بنـــاء واحدا لمجتمع راق تكون فيه القوى المنتجة فى وضع يمكنها من الجمع المتناسق بين تلبية حاجاتها المادية وحاجاتها الروحية(٤) ٠

وهذا التعبير والارتقاء هو ما يدل على معنى الثقافة والفكر بصفة عامة ، فالناس أثناء تطوير انتاجهم المادى انما يغيرون وجودهم الحقيقى وأساليب تفكيرهم وكل ما ينتج عن هذا التفكير ، فليس وعى الناس هو الذى يحـدد وجودهم ولكن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم(٥) ٠

فالمزارع حينما يباشر لأول مرة استصلاح قطعة من الأرض فانه يقوم بمباشرة عملية ممارسة فى الواقع المـادى ممثـلا فى قطعة الأرض ، وحينما يقتطع بعض الأخشاب المتينة ويصنع منها محراثا لزراعة الآرض بعد تمهيدها ويزرعها بالفعل ويقيم له مسكنا بالقرب منها ويربى الحيوانات التى يحصل منها على اللبن والجبن والأثاث ٠٠ الخ ، فان هذا الانسـان الى جانب كونه يقوم من خلال كل ذلك بممارسات وفعاليات عملية تجاه الواقع المادى بحكم الضرورة والحاجة الى البقاء ، فانه يقوم فى الوقت نفسه بعملية تحويل هذا الواقع تحويلا حضاريا وثقافيا(٦)٠ واعادة صنعه بشكل أكثر فائدة وجمالا ، وبطريقة أكثر ارتقاء وتقدما بالنسبة له ٠

وهو حينما يحدد نوع المحصول الذى يزرعه فى الأرض وطريقة طبخه وتناوله ، وحينما يختار نوع المواد الطبيعية المناسبة لبناء مسكنه « أحجار ـ

---

(٤) عبدالفتاح اسماعيل : فى كتاب مناقشات حول الثقـافة اليمنية ، دار بن خلدون بيروت ١٩٧٥ ص ١٦ « شارك فيها عدد من المثقفين اليمنيين » ٠

(٥) راجع د٠ محمد على محمد : القيم الثقـافية والتنمية فى كتاب دراسـات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٤ ص ٣٥٨ ٠

(٦) التحويل الحضارى للواقع من قبل الانسان يشير الى المعنى الأكثر شمولا وعمومية لعلاقة الانسان بالطبيعة والمجتمع منذ وجد ، وهو المعنى الدال على الحضارة نفسها باعتبارها تشكل مجموع كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وفكرته عنها والمتراكمة منذ القدم وحتى الآن ، بغض النظر عن كونها ما تزال ذات طبيعة فعالة فى حياته الحاضرة أم لم تعد كذلك ٠ بينما يشكل التحويل الثقافى للواقع أو الثقـافة نفسها الجانب الحى والفعال من الحضـارة فى حيـاة الناس الراهنة والمنظم لها ، سـواء كان موروثا من المـاضى أو ممـا يضيفونه هم أو يصنعونه فى الحـاضر ، وسنتناول الدلالات المختلفة لـكل من الحضارة والثقـافة والمدنية فى الصفحات التالية بشىء من التفصيل ٠

أخشاب - طين - أشجار ٠٠ الخ »(٧) وكيفية بناءه وتوزيع مرافقه وحينما ينظم علاقته مع من يعيشون ويعملون معه من أفراد أسرته أو جماعته فيما بينهم أو تجاه الغير وفق مقاييس ومعايير اجتماعية معينة « تزاوج - عمل - حب - حقوق - واجبات - جزاءات - عقوبة ٠٠ الخ » ٠ وحينما يعبر عن نجاحاته واخفاقاته وطموحاته وآماله فى كل هذا الخضم الواسع من الفعل ورد الفعل بكثير من المعـــانى والمفاهيم الدالة على النجـاح والفشل والصح والخطأ والحسن والقبح والتفـاؤل والتشاؤم ٠٠ الخ ، ويصيغها جميعـــا فى شكل حقائق ومعارف مادية وعملية حينا ومفاهيم أدبية وأخلاقية وفنية ودينية أحيـانا كثيرة انما هو يقوم من خـــلال كل ذلك بعملية تجريد عقلى وذهنى بطريقة ما لمجمـــوع ممارساته وفعاليـاته الواقعية ووضع المقاييس الذهنية النـاجمة عن مجمـوع تلك الفعاليات والممارسات وخبرة الانسـان المتراكمة عنهـا والمنظمة لفعله وسلوكه وتصرفاته نحوها فى الوقت نفسه ، ضمن سياق تاريخى وجدلى دائم الحركة والتغيير والتطور بلا توقف ٠

وعلى عكس ما تقوله المفاهيم المثالية والتى تريد أن تعزل الثقافة عن الواقع المادى ، فان انتاج الخيرات المادية - كما يقول على باذيب - هو الذى يشكل قاعدة ومصدر الثقافة الروحية(٨) ٠ ويمكن اعتبار التعريف المقتضب والمحدد الذى صاغه الدكتور محمد الجوهرى حديثـا هو أكثـر التعريفات دلالة على المعنى العلمى للثقـافة ، فقـد حددها من وجهة نظر الانثروبلوجيا الثقافية وعلم الاجتماع المعاصر بأنها : هى البيئة الثـــانوية التى من صنع الانسان ، أى كل ما صنعه الانسان للتعامل مع البيئة الطبيعية (التى تعـد البيئة الأولية) من عناصر مادية وروحية على السواء(٩) ٠

نخلص من كل ذلك الى أن الثقافة بالمعنى الشامل والمحدد هى : الفعل المباشر للانسان فى الواقع وما ينجم عنه من أداة أو فكرة تعمل مباشرة على تنظيم هذا الفعل والوعى به وزيادة نموه أكثر فأكثر فى الوقت الحاضر ٠

المدلول العلمى للحضارة والثقافة والمدنية :

وبعـد أن انتهينا من مســـألة ايضاح تعريف ومدلول المعنى العلمى

---

(٧) د٠ دورسون : نظريات فى الفولكلور المعـاصر ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى ، والدكتور حسن الشامى ، دار الكتب الجامعية القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٠ ٠

(٨) على باذيب : فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ١٩٧٥ ص ١٠٥ ٠

(٩) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ١٩٧٨ ص٨٩ ٠

للثقافة فى حدود ما يسمح به حيز هـذا البحث ويحقق غرضه ، نجد أنه من الضرورة توضيح مدلول مصطلحات أخرى ذات علاقة جوهرية بمصطلح الثقـــافة وهما مصطلحى الحضارة والمدنية ، وذلك قبل الدخول فى صميم موضوع هـذا البحث الذى سيدور أساسا حول ظاهرة المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة ٠

ونظرا لمـا هو معروف عن هذه المصطلحات مجتمعة من مفاهيم ومذاهب ووجها نظر فلسفية واجتماعية وتاريخية شديدة التعقيد والتشعب والتباين الى هذا الحد أو ذاك وعلى نحو لا يسمح باستعراضها أو حتى مجرد الاشارة اليها هنا ، والذى قد يكون القيام بشىء من هذا القبيل لا يعدو مجرد كونه فعل من قبل تحصيل حاصل بل هو تصرف قد يخرج فى جوهره عن موضوع هذا البحث وهدفه الأساسى ٠ الا أن ما نحرص عليه فى نطاق خدمة موضوع بحثنا وتحقيق تكامله النظرى والموضوعى من جهة ، ويساعد القارىء العزيز على تفهم كل أبعاده بوضوح من جهة أخرى ، هو أننا سنقوم فى هذه الفقرة بتقديم لمحة سريعة ومركزة عن مدلول مصطلحى الحضارة والمدنية وعلاقتهما بمصطلح الثقافة الذى سبق تحليله ، وذلك فى ضوء مجمل المفاهيم والمذاهب ووجهات النظر الفلسفية والاجتماعية والتاريخية الشائعة فى هذا الصدد ، وبرؤية أكثر حداثة لا تخلو من الاجتهاد والاضـافة الجديدة ، دون اللجوء الى التفاصيل والمقـــدمات وعرض وجهـات النظر التقليدية التى لا يطيقها موضوع بحثنا كما سبقت الاشـارة ، والتى يستطيع القـــارىء أن يجدها فى عشرات ومئات المجلدات الخاصة بهـذا الأمر ، عوضا عن كونها بالرغم من ذلك لم تقدم بعد حلا علميا ناجزا لهذه المسائل المعقدة فى حياة الانسان وتاريخه وفكره ٠

(أ) الحضـارة

اذا جاز لنا القول بتعريف محدد لمعنى « الحضارة » بـكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى فى ضـوء ما قيل أو كتب أو ما يقودنا اليه جهـــدنا الذهنى والعقلى من خـلال ما يفعل أو يقال أيضـــا فهو القول : بأن معنى الحضارة ومدلولها الواسع يتجسد فى كل مظاهر تدخل الانسان فى الطبيعة وتحويلها عبر التاريخ ، وما ينجم عن هذا التدخل والتحويل من فكر ومعرفة متجددة بلا انقطاع ، انها امتـــداد وجود الانسان خارج ذاته فى كل زمان ومكان ٠

وبذلك فان الحضارة تشكل الاطار الأكثر شمولا واستيعابا لنشاط الانسان وانجازاته المادية والذهنية منذ فجر التاريخ القديم ، وما يحدثه في الوقت الحاضر ، وما قد يحدثه في المستقبل أيضا · فاشعال النار وزرع البذور واستئناس الحيوان وركوب البحر منذ فجر التاريخ قد شكلت البدايات الأولى لمظاهر تدخل الانسان في الطبيعة ومحاولة تحويلها لأجله منذ القدم ، كما أن كل مجموع أفكاره الصحيحة والخاطئة عنها هي انعكاس لفعله وتدخله فيها من جهة وتعبير عن رغبته العميقة في تفسيرها وتحويلها لأجله بطريقة ما من جهة أخرى · وانسان الحاضر لا يختلف كثيرا عن انسان الماضي الا في حدود نسبية ، حيث أنه بالرغم من زيادة فاعلية تدخله في الطبيعة وتحويلها لأجله وزيادة نموه وتراكم أفكاره الصحيحة عنها ، الا أنه ما تزال له طموحاته غير المحدودة في التدخل في شئونها وتحويلها لأجله أكثر فأكثر ، وما يزال عليه أن يكتشف الكثير من أفكاره الخاطئة عنها ويصححها ويضيف اليها أفكارا جديدة ، كما أن انسان المستقبل سوف لن يخرج كثيرا عن هذا المسار الا بحدود نسبية ·

ومن بين مجموع هذه التراكمات والتحولات والاضافات يتجسد المدلول الحضاري لتاريخ الانسان ووجوده الحضاري أيضا الممتد خارج ذاته والمستمر في كل زمان ومكان ، والذي يتفرد به عن بقية الكائنات الأخرى بمقاييس لا تدرك أو تجاري بسهولة ·

والحقيقة أن المدلول السابق لمصطلح (الحضارة) بقدر ما أنه يوحي بالشمول شبه المطلق لممارسات الانسان وتفكيره ووجوده الا أنه شديد الوضوح وبارز الدلالة من الناحية الموضوعية واللغوية معا ، أكثر من أي تعريف أو مدلول آخر عن هذه القضية ، كما أن البحث عن أي جانب من جوانب حياة الانسان في نطاق هذا المدلول الحضاري ، كالحب أو الجمال أو العلم بما في ذلك الثقافة والمدنية يصير أمرا بديهيا وأكثر قبولا ، فكون الانسان يبحث عن أي شيء أو يصنع أي شيء أو يفكر في انجاز أي شيء في نطاق مدلول وجوده الحضاري الشامل هو الأمر الذي يبدو أكثر بداهة وقبولا ، موضوعيا ولغويا مما لو أراد أن يصنف كل ذلك أو بعضه ويمارسه في نطاق السياسة أو الدين أو مجرد تشابه الأحداث التاريخية وحدها ·

فاذا كان المدلول السابق لكلمة « حضارة » قد تميز بهذا الشمول والعمومية لمظاهر نشاط الانسان العملي والذهني الى هذا الحد في الماضي والحاضر والمستقبل وفيما يشبه عملية الاستيعاب المطلق لمدلول وجوده

فما الذى سيبقى اذن للحديث عنه كثقافة أو مدنية فى حياة هـذا الانسان وتاريخه ؟؟ خصوصا اذا ما تذكرنا بأنه من الملاحظ أن المدلول الاصطلاحى لكل من الثقافة والمدنية هما من أشد جوانب حياة الانسان اقترابا وتشابها بالمدلول الموضوعى والاصطلاحى السابق لكلمة « حضارة » الى حد التداخل الشديد واحلال أى من هذه المصطلحات الثـلاثة محل الآخر لدى أوساط عديدة من المفكرين والفلاسـفة ، أو الاستغناء بأحدهم للدلالة على البقية ، الى حد انعـدام القـدرة على التمييز بين دلالة كل منهم على حدة فى كثـير من الأحيان(١٠) ٠

لذلك فقط رغبنا جادين فى هذا الجزء من هذه الدراسة فى التركيز على محاولة تبيـان المدلولات الاصطلاحية والموضوعية لمصطلحات الثقـافة والمدنية ، وعلاقة كل منهما بالآخر وبمصطلح الحضارة السابق تحليله ٠

(ب) الثقـافة

فالثقافة فى ضوء المدلول السابق للحضارة يمكن النظر اليها باعتبارها الجانب الحى والفعال من الحضارة والذى لم يفقد وظائفه المباشرة بعد ، والممثلة فى مختلف أنماط الفعل والسلوك والتفكير السائد بين الناس حاليا ، والمنظم لحياتهم والحـائز على درجة معقولة من التقبل من جانبهم ٠ وحتى نوضح بسهولة دلالة هذا التعريف لمصطلح الثقافة باعتبارها الجانب الأكثر فعالية من الحضارة فى الوقت الحاضر ، فى مقابل الجوانب الأقل فعالية وتأثيرا فى حياة الانسـان الحـاضرة والتى تتضمن المعنى الأكثـر دلالة واتسـاعا لمعنى الحضارة ، فاننـا سوف نضرب مثالا حيا لتوضيح هـذه القضية من خلال المقارنة بين الهرم الأكبر ومعبـد الكرنك من جهة ، والمسجد أو الكنيسة من جهة أخرى ، كرموز للسلوك الدينى وأماكن بنيت أساسا لممارسة هذا السلوك وأداء شعائره المختلفة ، حيث يمثل المسجد والكنيسة مثلا ظاهرة ذات دلالة ثقافية بالمعنى المشـار اليه سابقا فى نطـاق الوجود الحضارى الشامل للانسان ، باعتبـار أن المسجد والكنيسة يمارس كل منهما وظيفته المادية والمعنوية المباشرة التى بنى من أجلها ، ويتميز سلوك الانسان نحوهما بالجدية والالتزام ، باعتبـاره سلطة قائمة تستوجب الطاعة والاذعان لما تقضى به هذه الرموز الدينية ، وذلك على خلاف الهرم أو معبد الكرنك الذى كان يمارس مثل هذه الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الانسان فى يوم

---

(١٠) راجع ما سبق ٠

من الأيام ولا تقل أهميته ولا تختلف شكلا ومضمونا عن المسجد أو الكنيسة في الوقت الحاضر الا في حدود نسبية ، الا أنه « أي الهرم » قد فقد كل تلك الوظائف والفعاليات المباشرة تماما وصارت علاقتنا به اليوم هامشية الى أبعد الحدود « مجرد مكان للنزهة واسترجاع ذكريات التاريخ وقراءة أحداثه » فالمسجد والكنيسة والنادي والسينما ونظام المرور ظواهر ثقافية ، واهرام مصر ومعابدها القديمة وبرج بابل وسد مأرب وقصر الحمراء وأخبار غرناطة ، ظواهر أكثر التصاقا بالمضمون الحضاري التراكمي الأكثر شمولا والتي لم يعد لها أي تأثير مباشر في حياتنا الا بصورة غير مباشرة في أحسن الأحوال ٠

وقس على ذلك السفن الشراعية القديمة بسفن البحار الحديثة ، وايقاد شعلة الحطب للاضاءة في الماضي ، بمصابيح الكهرباء في الوقت الحاضر ، وعربة الخيل بالسيارة والطيارة ٠٠ الخ ، الى ما لا نهاية ٠ وهكذا أشياء وجدت منذ وجود الانسان ولعبت أدوارا ووظائف هامة في حياته ثم تخلت عن تلك الوظائف المباشرة لتشكل البعد التراكمي الغير مباشر في تاريخ الانسان ووجوده الحضاري الأكثر شمولا ، وحلت محلها أشياء جديدة في الوقت الحاضر أكثر تطورا ، وتمارس فعاليات ووظائف أكثر تعقيدا في حياة الانسان وسلوكه لتشكل ما نقصده بالجانب الثقافي من الحضارة أو الثقافة نفسها في اطار المفهوم الحضاري ، وهذه الاشياء قد تتخلى حتما عن دورها هذا ووظيفتها هذه في المستقبل ، لتأخذ مكانها على هامش الحياة مفسحة المجال أمام أشياء أكثر جدة وتطورا وفعالية في حياة الانسان ، ضمن عملية ديالكتيكية جدلية مستمرة لا تتوقف ٠

(ج) المدنية

يمكن النظر الى المدنية في نطاق المدلول الحضاري الشامل أيضا باعتبارها « المسافة التي تشكل نقاط التفاعل والاحتكاك المتجدد بين الابداع الانساني الجديد والاتباع الثقافي السائد في مرحلة زمنية وتاريخية معينة » والتي تبدأ باحداث الأشياء الجديدة لأول مرة من جهة والمحاولات الأولى لتطبيق مدى صلاحيتها ومدى تقبل الواقع الاجتماعي لها وقدرته على التكيف معها من عدمه ، انها مرحلة التهجين الأولى لاحداث الأشياء الجديدة من خلال تطوير الأشياء القديمة أو الاضافة اليها ، واجراء التعديلات وعمليات الاختبار والتجارب الأولى لمدى صلاحيتها في الواقع المادي وتناسبها مع الواقع الاجتماعي وتقبله لها من جهة أخرى ، وبمجرد أن تثبت هذه الأشياء أو بعضها

ـ مادية كانت أو معنوية ـ صلاحيتها فى الواقع وقبـولها من قبل أفـراد المجتمع واستقرارها فى تفـكيرهم وتطبيقها فى سلوكهم وممارستهم فانهـا تكون بذلك قد تحولت من عناصر مدنية الى عناصر ثقافية ملزمة اجتماعيا ٠

فارتداء البنطلون وحلاقة شعر الذقن عند الرجال والميكرو جيب عند النساء وحتى خروجهن سافرات الى العمل والحياة العامة كلها كانت وحتى مرحلة ليست بالبعيدة أبدا فى واقعنا العربى مثـلا ، أمورا ذات حساسية بالغة ، ودار حولها الجدل المرير على مستوى الواقع والفكر ابتداء من أشد المواقف رفضا مرورا بأكثرها ميلا الى مجرد التردد والحذر والمحاكمة الذهنية وحتى أشدها تطرفا بوعى وبدون وعى ٠ وتلك هى فترة أو مرحلة ما نقصده بتيار المدنية أو بالمدنية نفسها بالنسبة لوجود الأشياء وتطورها ، أو ما يعرف « بالموضة » بـكل ما تعنيه هـــذه الكلمة ، أو الصدمة الأولى للمدنية حيث ما تلبث مثل هـــذه الأمور أن تشق طريقها نحو الاستقرار والتقبل أكثـر فأكثر فى صميم الحياة الاجتماعية والثقافية بعد أن تتعرض لبعض التعديلات من مجتمع لآخر الى هذا الحد أو ذاك ، ويصبح الخروج عليها هو الأمر الذى يستحق العقوبة الاجتماعية ٠ وقس على ذلك استخدام سـاعة اليد وأنبوبة البوتاجاز وتنـاول الطعـــام على السفرة قعودا على الكراسى والميكروفونات فى المساجد ٠٠٠ الخ ٠

العلاقة الجدلية بين مدلول كل من الحضارة والثقافة والمدنية :

فى ضـــوء ما سبق يمكن أن نلاحظ بوضـوح أن المدنية هى الحيـز أو المسافة الممتدة بين ما يبدعه الانسان وينتجه أو يقدم اليه لأول مرة لكى يتعرف عليـه ويلتزم به فى حيـــاته الجديدة كمدنية ، وبين ما هو يعرفه ويلتزم به أصلا « كثقافة » ٠ وأن الثقافة هى الحيز أو المسافة التى تبـــدأ من هذه النقطة « نقطة الاعتراف بالأشياء وتقبلها والالتزام بها كاطار منظم للفكر والسلوك والعمل » ، وتنتهى عنـد البدء بالتخلى عن الالتزام المباشر بالوظائف المباشرة لهذه الأشياء والظواهر فى حيـــاة الفرد والمجتمع عنـد تطويرها أو استبدالها بأشياء جديدة بعد نقلها الى مواقع هامشية فى حياة الانسان وتاريخه ، وأن الحضـارة بأكثر دلالالتها شمولا واتساعا بقـــدر ما أنها تشكل الاطار الذى يحدث الانسان فى نطاقه كل هذا ، فهى من باب أولى تشكل البعد التراكمى الهـــائل الذى يجسد كل ما يحدثه أو أحدثه الانسان عبر تاريخه الطويل والاحتفاظ به كبعد اجتماعى وثقافى غير مباشر ، خصوصا ما يتصل من ذلك بالأشياء والظواهر التى تفقد وظائفها المبـاشرة فى اطار المدلول الثقافى الراهن للمجتمع وتشكل المذخور التاريخى والروحى والوجدانى العميق غير المباشر لوجود الانسان وتصرفاته المباشرة ٠

فالذى فكر فى ايقاد أول مصباح زيتى لمكافحة الظلمة من حوله قد باشر حدثا حضاريا من حيث كونه قد تدخل فى شئون الطبيعة الأصلية ، الا أن هذا الفعل فى تلك اللحظة كان ما يزال أيضا يشكل ظاهرة مدنية من حيث كونه شيئا جديدا كان ما يزال على مخترعه وكل من حوله أن يقيم هـذا الفعل ويفكر فى مدى جدواه من عدمه بالنسبة لهم ، فاذا ما قبلوا به فانهم ملزمون بتعلم بعض المعارف الأساسية عن تكوينه وكيفية استخدامه والتعامل معـه (كيف يشعلونه ، ومتى ، وما هى المخـاطر المترتبـة على سـوء الاستخدام ٠٠ الخ) وبذلك يتحـول من ظاهرة مدنيـة خاضعة للتجـربة والعرض والطلب جائزة القبول والرفض الى ظاهرة ثقافية واجتماعية ملزمة وجزء لا يتجزأ من التنظيم الاجتماعى وضروراته ٠

وحينما جاء المصباح الكهربائى كشكل أكثر تطورا فى تدخل الانسان فى شـئون الطبيعة واكتشاف قوانينها لأجله فانه قد مر بنفس الخطوات التى مر بها المصباح الزيتى منذ البـداية حتى صار ما نعيشه اليوم ظاهرة حضارية فى الأساس وثقافية فى الوظيفة والفاعلية المباشرة فى حياة الناس فى الوقت الحاضر وجزء لا يتجـزأ من التنظيم الاجتماعى وضرورات وجوده الملحة ٠

وبينما كان مصباحنا الـكهربائى الجديد هـذا آخذ فى التحـول من ظاهرة مدنية الى ظاهرة ثقافية كان مصباحنا الزيتى القديم ذاك آخـذ فى التخلى عن مهامه ووظائفه وفعالياته المباشرة فى حياة الناس فيما يشبه عمـلية تناسب عكسى منظم ودقيق ، حتى صار اليـوم على هامش الحيـاة الاجتماعية تماما ، بعد أن كان فى نقطة ارتكازها ، وصار اضـافة جديدة فى المذخور التراكمى الهائل لتاريخ الانسان ووجوده الحضارى والروحى الممتد فى الماضى وغير المباشر فى الحاضر ، هناك حيث سفينة الشراع والفأس الحجرى والتقاط الثمار وعبودية الأرض والانسان ، وعلى هـذا فقس كل الماضى وما هو آت ٠

ومن خـلال كل هـذا وبرؤية هـادئة ومتعمقة نسـتطيع القـول بأن المصطلحات الثلاثة « الحضارة والثقـافة والمدنية » هى ذات دلالات موضوعية فى الواقع وممكن القبول بهـا نظـريا وعمليـا وليست مجـرد مصطلحات لغوية يمكن احلال بعضها محل البعض الآخر أو الاستغناء ببعضها عن بعض أو تحميلها من المعانى والدلالات ما لا صلة لها به ، انسياقا وراء توجهـات ايديولوجية أو قومية أو سياسية وعنصرية مغرضة بعيـدة عن العلم ، كما كان شائعا فى الماضى وما يزال ٠

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان العلاقة التى تربط بين هذه القضايا الأساسية هى علاقة ديالكتيكية وجدلية مترابطة وشديدة الوضـوح وبالغة الدلالة تاريخيا وعلميا · ولنتتبع الحركة الجدلية للأشياء والظواهر فى هذا الصدد وهى تعبر من الواقع الى ذهن الانســان حيث تتشكل بصورة أرقى وتتجسد بفعــله فى الواقع من جــديد فى شكل أشــياء وأفكار جديدة هى ما نطلق عليه المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء ، حينما تقـدم للمجتمع لأول مرة لكى يتعرف عليها ويتذوقها ويختار منها ما يناسبه كأطر ومقاييس جديدة لحيــاة جديدة بدلا عن أشـياء قديمه ينبغى عليــه التخلى عنها ، ثم ما تلبث هذه الأشياء الجديدة نفسها التى قبل بها المجتمع كأطر ومقاييس جديدة لحياة جديدة أن تشكل الاطار والمدلول الثقافى للمجتمع بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى سبقت الاشــارة اليه · ونظرا لأن عمليات انعكاس الواقع فى فــكر الانســان بصورة أرقى وتجسيد هــذا الفكر فى الواقع من خلال عمليات الابداع والانتــاج بما نطلق عليه حاضر الأشـياء المدنية أو مرحلة المدنية للأشياء التى يتحول النافع منها أيضــا الى اطار الثقــافة أو مرحلة الثقافة للأشياء ، هى عمليات ديالكتيكية وجدلية مستمرة ومتجددة لا تتوقف ، نظرا لكل ذلك فان عناصر الثقافة أو الأشياء فى مرحلة الثقافة لم تكن قط بمنجى من عملية التحول التاريخى والجدلى هذه ، حيث يضطر بعضها أو مجموعها الى التخلى عن دوره الثقافى المباشر فى تنظيم وتقنين حياة المجتمع طال الوقت أم قصر مفسحة الطريق أمام عناصر ثقــافية جديدة ، وتتحول بدورها الى موقع التراكم الهامشى الهــائل غير المباشر فى حيــاة الانســان وتاريخه ، والذى يــكون ما نعنيه بالمدلول الأكثـر شمولا لمعنى الحضارة والبعد التاريخى والروحى والوجدانى العميق لوجود المجتمع غير المبــاشر فى الوقت الحــاضر ، والذى يظل بدوره يسهم اسهاما جوهريا فى تطوير وابداع أشياء وأفكار جديدة بطريقة مباشرة وغير مباشرة فى أغلب الأحيان ·

وهكذا يظل كل شىء يدور فى دائرة ديالكتيكية وجدلية حية ابتــداء من الأفكار الأولية التى يعكسها الواقع فى ذهن الانسان بشكل أرقى ويجسدها فى انتاج أشياء وأفكار جديدة (المدنية) ثم ما تلبث هذه الأشياء والأفكار أن تصير ذات وظيفة وفعالية مباشرة وأساسية فى حياة المجتمع وتنظيم شئونه (الثقافة) ، وحينما توجد بدائلها أو نقائضها الجديدة الأكثر تطورا فانهــا ما تلبث أن تزيحهــا وتحل محلها وتؤول هى الى هامش الواقع الاجتمــاعى المتراكم عبر التاريخ (الحضارة بأوسع دلالتها) وتظل تسهم اسهاما حيويا

بالطرق المباشرة وغير المباشرة فى اثارة أفكار جديدة تؤدى بدورها الى انتاج أشياء جديدة وهكذا وهكذا ٠

وهذه الدائرة الحية لم تكن حركتها سلبية (مغلقة) كما تجمع على ذلك كل الفلسفات المثالية والبرجوازية والرجعية بشكل أو بآخر ، والتى يمكن تلخيص محتواها من خلال التذكير بالمعادلات السابقة التى تقول بأن كل شىء يسير وفقا لمبدأ « الولادة ثم الحياة فالموت ثم الحياة من جديد » على الطريقة البوذية والبرهمانية الهندية ، أو أن كل شىء قد سبق فعله فى عالم الغيب واننا نقوم بعملية احساس وتذكر لما يسمح به لنا عالم الغيب هذا من الأشياء التى نحتاجها فنجسدها بشكل مؤقت فى شكل أشياء ملموسة نستعملها حيث ما تلبث بعد وقت قصير حينما تنتهى صلاحية استعمالها أن تعود الى عالمها الغيبى حيث توجد ضمانات وجودها الحقيقى كمجرد احساسات غيبية ، وتفارق تجسداتها المادية المؤقتة لنقوم نحن بعملية تذكرها من جديد اذا ما سمح لنا بذلك وبشكل ما ، وذلك على حد تعبير « باركلى » كبير المثاليين ورائد فلسفتهم الذى ألغى وجود الموضوع واكتفى بالاحساس والتذكر من قبل القوى الغيبية كهوية للوجود برمته ٠ (١٠)

كما ان هذه الدائرة الحية لحركة الأشياء ليست كما تدعى الفلسفات الرأسمالية والبرجوازية الوسيطة والمعاصرة مجرد حركة تلقائية وعشوائية للأشياء غير محددة الاتجاه أو الهدف كما يقول الوضعيون والوظيفيون ، والتى ان جاز للانسان التعرف على قوانين حركتها الطبيعية والاجتماعية الا انه ليس من حقه أن يتدخل فى شئونها أو تنظيمها وتوجيهها ، لأنها بحكم طبيعتها أقدر منه على تنظيم شئون نفسها بنفسها ولأن ذلك يتجاوز قدرة الانسان وامكانياته ٠ مفسحة بذلك مكانا للغيب والميتافيزيقا من جهة والفوضاء والظلم والاستغلال من جهة أخرى ، فالحروب والأمراض والعقم - كما يقول مالتوس - تحل مشكلة زيادة السكان ، والاستغلال والظلم والمراباه تحل مشكلة توزيع الثروة ٠٠ الخ ٠

(١٠ مكرر) راجع باركلى : سلسلة أعلام الفكر الغربى ، دار المعارف بمصر ٠

وهذه الحركة ليست أيضـــا كما يفسرها البرجـــوازيون والوظيفيون المعاصرون ، مجرد أشياء تتحرك بانتظام لأداء وظائف محددة فى دائرة مغلقة وثابتة الايقاع والتوازن تلقائيـا ، كما هى عليه فى الوقت الحـاضر ودون حاجة الى تغيـير ، وأنه اذا ما حدث أى تأزم أو اختلال أو انهيار فى هـــذا التوازن الوظيفى المزعوم ، فانه ما يلبث أن يفرز العوامل الكفيلة باعادة هذا التوازن من جديد كما هو ، واذا جاز للانسان أن يتدخل فى كل هـذا فهو تدخل من أجـل المحافظة على أدائهـا الوظيفى وزيادة فعاليته وحفظ توازنه واستمراره وليس من أجل تغييره ٠

فالأزمات الاقتصـادية والحروب الدولية التى يتسبب فيهـا النظـام الرأسمالى والتفكير البرجوازى والنازى ويختل معها توازن الواقع القـــائم هى مجرد حالات عارضة ومؤقتة ما تلبث أن تزول ويستعيد توازنه الوظيفى من جديد ، كما أن الدعـــوة الى انهاء السـيطرة الاستعمارية واســـتغلال الاحتكارات الدولية الرأسمالية للمجتمعات النامية والمتخلفة وتحقيق تحررها الاقتصـــادى والاجتماعى هو فى نظر هـــذه الفلسفة عمل تخريبى للنظام الوظيفى القـائم لنعـالم وافسـاد توازنه واستقراره ، بينما يـكون الفعل المعاكس الذى يعمل على المحافظة عليـــه وزيادة تنشيطه وفعاليته هو الذى من المفروض أن يتم باعتبـــار أن هـذا التنظيم (المشوه) لم يكن كما ترى هذه الفلسفات الرأسمالية والاستعمارية مجرد تنظيم اقتصـادى واجتماعى فحسب ولكنه نظام الطبيعة الأمثل الذى أهدته السماء الى الأرض ٠

ولقد أبدى كل من دوركايم ، وماكس فيبر ، وهيدل برج ، وبارسونز وباريتو ، وسمارت ، وغيرهم اهتماما بالغـا بدراسة النســق الرأسمالى فى نظرياتهم السوسيولوجية فى محاولة منهم للتصدى للاشتراكية العلمية وتبرير الأوضاع القائمة فى المجتمعات الغربية من خلال التركيز على مفاهيم النظام والنزعة الوضعية والتساند الوظيفى(١١) ٠

وأخيرا نلتقى بأكثر نمـاذج الفلسفات البرجوازية انحطاطا وسـذاجة والتى لا ترى فى كل مظاهر نشاط الانسان وفعـاليته فى الواقع والطبيعة أكثر من مجرد المحافظة على البقاء والبحث المستميت عن مصـلحته وفائدته وربحه بصفته « فردا » فكل شىء مفيد ومربح هو حيقة تستحق العمل بهـا والدفاع عنهـا ، حتى « الكذب » والقتل والخرافة والشـعوذة ، قد يرقى

---

(١١) د٠ محمد نبيل السمالوطى : علم اجتماع التنمية ، دراسة فى اجتماعيات العـالم الثالث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ١٩٧٤ ، ص ١٧٢ ٠

كل منها الى مصاف الحقـــائق المقدسة طالما وان فى مقـدورها تحقيق ربحا أو مصلحة فردية أو طبقية بذاتها حتى ولو كانت هذه المصلحة على حســاب الغير وعلى أنقاض بقائهم نفسه ، وهذا هو منطق الفلسفة البرجمتية السائدة فى الولايات المتحدة الامريكية والتى لا تخفى مقاصدها(١١) ٠

وعلى خلاف كل هذه الفلسفات الرجعية والبرجوازية الرأسمالية معـا ترى النظرية العـــلمية والتاريخية أن مجمـــوع حركة الأشياء فى الطبيعة والمجتمع لم تكن قط عمـــلية « تناسخ وحلول » كما يـرى الرجعيـون ، ولا احساسات خيالية وميتافيزيقية كما يرى المثاليون ، ولا هى مجرد حركة عشوائية فى دائرة مغلقة أو مجرد كائنات وظيفية سلبية تقوم بتنظيم وادارة واقع انسانى واجتمـاعى غير قابل للتغيير ، أو مجرد تعبير عن فكرة منحطة وسلبية لمعنى الفـــائدة والربح الفردى كما ترى كل الفلسفات البرجوازية والاستعمارية المشار اليها آنفا من وضعية ووظيفية وبرجماتية ٠

فعلى خلاف كل هذا ترى المادية التاريخية أن مجموع حركة الأشـياء فى الطبيعة والمجتمع تشـكل عملية تغيـير وتطوير وتحـــول جدلى مستمر لا يتوقف وفى اتجاه صاعد ومتجدد على الدوام ، وأن دور الانسان وموقعه فى هذه العملية هو دور ايجابى وحاسم الى أبعد الحدود ، ومن خلاله وبفعله تتحول حركة الأشياء فى الطبيعة من حركة تلقائية بطيئة ولا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وفائدة لأجله ٠

فحركة الأشياء من الواقع الى ذهن الانسان بشكل معين ثم اعادتها الى الواقع ليست مجـــرد حركة سلبية ، ذلـك أنه بالرغم من وجود الأشـياء وقوانينها فى الطبيعة ولم تكن بحاجة الى ذهن الانسان أو الى أى قوة غيبية لكى توجد أو تستمر فى وجودها وحركتها وتطورها المستمر ، الا أن ادراك ذهن الانســـان لها واكتشافها والوعى بهـا شيئا فشيئا وتدخله المبـاشر فى شئونها وفرض نفسه كحلقة جديدة فى عملية التحول التاريخى ، بعد أن حقق هـــذا الذهن الانسانى درجة عالية من التطور والارتقـاء بالقياس الى بقية الحيوانات الأخرى ، هـــذا التطور الهائل قد أحدث ثورة كبـــيرة فى حياة الانسان والطبيعة معا ، فحركة الأشياء وقوانينها فى الطبيعة صارت بفضل ذلك تعمل بمقاييس أكثر سرعة وانتظاما وحيوية نتيجة وعى الانسان بها وتحويلها من حركة تلقائية بطيئة لا واعية الى حركة واعية وأكثر سرعة وتنظيما وفائدة لأجله أكثر فأكثر ٠

(١١ مكرر) راجع حمود العودى : التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، وبالذات الفصل الثانى بصفة عامة ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٨٠ ٠

وفى نطاق هذا المفهوم النظرى والعلمى والمنهجى الواسع لفهم الاشياء وتفسيرها وبفضله أيضا كانت محاولتنا السابقة لتفسير معنى ومدلول كل من الحضارة والثقافة والمدنية ومحاولة الخروج بهذه المصطلحات ذات الدلالات الهامة فى حياة المجتمع من دائرة الميتافيزيقا والاجتهادات العشوائية الغامضة والمتناقضة والتى ما تزال تفسد الوعى بها بطريقة صحيحة حتى الآن فى كثير من الأحيان الى دائرة العلم والفهم التاريخى والجدلى الصحيح ٠

وبالرغم من الحيز الكبير نسبيا الذى شغله الحديث فى هذه القضية التى لا تدخل مباشرة فى صميم هذه الدراسة ، الا أننى راض كل الرضا عن هذا الفعل نظرا لما لهذا الأمر من أهمية قائمة بذاتها وذات صلة مباشرة بموضوع هذا البحث ، وذلك حتى تتاح فرصة أكبر لتناول هذه القضية فى دراسة قائمة بذاتها وبتحليل أكثر عمقا وشمولا لهذا الموضوع ٠

المدلول العلمى والطبقى لفئة المثقفين :

لقد سبق وأن ذكرنا بأن الثقافة ليست هى ما تقوله أو تنشره أجهزة الاعلام والنشر الرسمية والتجارية أو ما يقرأه ويكتبه المثقفون ، واشتراط وجودها بوجودهم وبينا المفهوم الحقيقى والعلمى لمعنى وماهية الثقافة وعلاقتها بالحضارة والمدنية ٠ لكن من هم المثقفون ومن هو المثقف نفسه وما هى علاقته بالمفهوم السابق للثقافة ؟؟

ربما يكون من باب التيسير للوصول الى تحديد معنى وماهية المثقف على أساس موضوعى وعلمى لو قمنا فى البداية بعملية « تسطيح » أفقى لهذا المفهوم قياسا على غيره من المفاهيم المماثلة وشبه المماثلة ، كالطبيب والمهندس والفنان ٠٠٠ الخ ٠ فاذا كان الطبيب هو من تتوافر لديه معلومات أكثر من الطب وقدرة أفضل على مكافحة المرض فى حياته وحياة الآخرين ، وأن المهندس هو أيضا من تتوفر لديه معلومات أكثر عن علم الهندسة ومهارات أكثر فى تصميم واقامة المبانى وغيرها ، الا أن الطبيب ليس هو الطب نفسه وليس هو المريض أو المرض أبدا ، انه فقط يعرف عن هذه الأشياء أفضل من غيره بحد نسبى لا أكثر ، وبما يتجاوز حدود احتياجه المباشر اليها ، أو هو على الأصح مثقف فيها أكثر من غيره ٠ والأمر كذلك بالنسبة للمهندس والفنان وراعى الأغنام ٠٠ الخ ٠

والمثقف بالمعنى الاجتماعى والسياسى الشامل هو ضرب من هذا القبيل ، هو شخص أو أشخاص تتوفر لديهم معلومات ومفاهيم نظرية

مجردة عن حياة الناس وعاداتهم وعلاقتهم وتاريخهم وأنشطتهم المكونة لثقافة المجتمع الحقيقية ، وبحدود نسبية أيضا ربما أكثر من الناس أنفسهم وبصورة أكثر تنظيما وتعقلا الى حد ما ، الا أنهم « أى هؤلاء المثقفين » ليسوا هم الناس أنفسهم ولا عاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم وطموحاتهم وكل يا يفعلونه أبدا ، انهم مجرد صورة جزئية لها وتعبير هامشى مجرد عنها بشكل ما ، انهم مثقفون فى الثقافة وليسوا هم الثقافة نفسها ٠

فاذا كان من أهم وأبرز خواص الثقافة كونها تشكل المقاييس والأطر المرجعية المختلفة لفعل الفرد والواجبة الالتزام والمراعاة فى سلوكه ضمن جماعة فان المثقف بالرغم من ادراكه نسبيا لمجموعها ومعلوماته عنها الا أنه وكل ما يدركه أو يعيه من ثقافة أفراد المجتمع لا يشكل قط فى مجموعه مصدر الزام واجب المراعاة بالنسبة له فى سلوكه وتصرفاته وأفعاله الا فى حدود ما يتطلبه وجوده المباشر ضمن جماعة كأى فرد آخر عادى وغير مثقف فيها وبفوارق نسبية بسيطة ، سواء ان كانت هذه الجماعة تشكل فئة أو طبقة قائمة بذاتها داخل المجتمع بحكم انتمائه اليها ٠

فالمثقف البرجوازى فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا قد تجده شغوفا ومهتما بقراءة الفلسفة الماركسية ، لكنها لا تشكل بالنسبة له مصدر الزام يذكر فى فعله وسلوكه اذا ما قيست بمصادر ثقافته الحقيقية فى نطاق مجتمعه أو طبقته ، بل ان اهتمامه ذاك قد تكون له دوافع عكسية تماما ، وهو الاهتمام بقصد الرفض وامتلاك القدرة على المواجهة المضادة ، تماما كما يفعل المتخاصمون فى الحرب الساخنة ، أو رجال المخابرات وأجهزة القمع والارهاب السياسى فى كل مكان ، حيث يهتمون جدا بالاطلاع العام على شئون الغير ومعرفة دقائق أسرارهم الشخصية والفكرية بقصد التمكن من احباطها اذا كانت لا تنسجم مع ميولهم وليس بقصد تبنيها كاطار لأفعالهم وسلوكهم ٠ كما أن الرجل المسلم قد يقرأ ويتثقف كثيرا فى الديانة المسيحية أو اليهودية أو البوذية ويكتب ويحاضر عنها فى الجامعات ومعاهد التعليم لكنها لا تعنيه فى شىء من الناحية العملية والتطبيقية والعكس صحيح ٠

والأكثر من كل هذا أنه حتى فى حدود الأمة الواحدة أو المجتمع الواحد نجد أن المثقف قد يلم ويضيف الى معلوماته الكثير من المفاهيم والنماذج الثقافية المختلفة أو المتناقضة فى مجتمعه ، فيقرأ عن ثقافة الفقراء والأغنياء ورجال الدين واللصوص وعن العدل والظلم والفن ٠٠ الخ ٠

بصفته مثقفا فحسب وبغض النظر عن كونه ينتمى اجتماعيا وطبقيا لأى من هذه النماذج أو لا ينتمى ، حيث يكون قد حدد سلفا نوع الجماعة أو الطبقة التى ينتمى اليها جوهريا ويلتزم بثقافتها وفكرها كاطار لسلوكه وتصرفاته العملية ، وذلك اما بحكم الوراثة والمولد والظروف المحيطة بمراحل تكوين حياته الأولى ، أو من خلال قناعات لاحقة سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية · فالشرائح الاجتماعية أو الفئات الاجتماعية بهذا المفهوم بما فيهم المثقفون هم - كما يقول الدكتور الجوهرى - عبارة عن تجمعات داخل طبقات معينة ،فعلا ولكن حجمها يتجاوز حدود تلك الطبقة ، ومن الممكن أن ينتمى أبناء شريحة معينة الى طبقات مختلفة ، أى أن علاقتهم بوسائل الانتاج ليست واحدة · وهذه الشرائح لا تلعب دورا مستقلا فى الصراع الطبقى الدائر فى المجتمع ، ولا تكون لها أى فاعلية الا بالتعاون مع الطبقات الرئيسية الأخرى فى المجتمع(١٢) ·

فحينما يكون الأصل الاجتماعى والطبقى للشخص فلاحا مثلا أو عاملا أو اقطاعيا أو رأسماليا أو غير ذلك من الجماعات الهامشية فى المجتمع بحكم الوراثة والمولد والتربية فى نطاق هذه الطبقة أو الجماعة أو تلك(١٣) · فانه يكتفى فى الظروف العادية اضافة الى هذا الموروث بالقيام بعملية اندماج وتمثل ثقافى وفكرى عميق لثقافة الطبقة أو الفئة التى وجد نفسه فيها وارتبطت مصالحه ووجوده بها ، والتى تشكل اطاره ومرجعه الاجتماعى

---

(١٢) د· محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ ، ص ٢٢٥ ·

(١٣) ان الفرق بين الطبقة والفئة أو الطبقات الأساسية والفئات الهامشية فى المجتمع هو فرق أو فروق بقدر ما أنها ثانوية وجزئية الا أنها مهمة ومن الضرورى ادراكها · فالطبقة هى الوجود لاجتماعى لقطاع أفقى معين من الناس فى المجتمع يتميز ويختلف عن قطاع أفقى آخر من حيث المضمون الاقتصادى بالدرجة الأولى وما ينجم عنه من مميزات أخرى ثقافية وفكرية وسياسية وسلوكية ، كطبقة العمال والفلاحين والرأسماليين والبرجوازية · أما الفئات الاجتماعية فهى عبارة عن جماعات هامشية موزعة رأسيا بين مختلف الطبقات ولا تتميز بالقدرة على البقاء والاستقلال بذاتها كالطبقات الأساسية ، وهى اما فئات وجماعات مؤقتة كالطلبة والجنود « تحت الخدمة العسكرية » أو جماعات تعيش على هامش الطبقات الأخرى أو ملحقة بها بصورة مباشرة وغير مباشرة ، مثل الأطباء والمهندسين والمعلمين والمثقفين أنفسهم ، ورجال الدين ، وكذلك جماعات اللصوص والمجرمين والمنحرفين ·· الخ · أنظر فى ذلك تفاصيل أكثر فى كتاب دراسات فى التنمية الاجتماعية د· محمد الجوهرى وآخرون - دار المعارف المصرية - الطبعة الثالثة ١٩٧٧م ص ٢٢٦ الى ٢٢٩ · كما أننا سنتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر فى أماكن لاحقة من هذه الدراسة ·

الحق ، وهو لا يتجاوز باهتماماته حدود ثقافة هذه الطبقة الا حينما تتاح له فرصة أكثر فى التعليم ويوسع اهتماماته واطلاعاته الاجتماعية والسياسية بصفته مثقفا ، اما بقصد الاطلاع والتثقف الشخصى وفقا للمثل القائل « العلم بالشىء خير من جهله » أو بدافع التعرف على ما عند الغير والافادة منه فى الدفاع عن ثقافته الحقيقية وزيادة نموها فى مواجهة الأطر والثقافات الأخرى التى قد تتعارض وتتناقض مع ثقافته وتكوينه الطبقى ، وهذه هى القاعدة العامة فى علاقة المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية وغيرها من الطبقات الأخرى فى المجتمع ٠

أما الاستثناء فهو أن المثقف من أى طبقة أو جماعة ومن خلال ما يقوم به من عملية تجاوز وقفز مستمر خارج نطاق طبقته وثقافته الأصلية قد يتأثر بمضمون ومحتوى نموذج ثقافى آخر غير نموذجه الأصلى الذى وجد فيه لأى سبب من الأسباب ، كما يفعل بعض أفراد الطبقة البرجوازية والأرستقراطية حينما يتبنون مواقف الطبقة العاملة وفكرها ، أو طبقة الفلاحين ويدافعون عنها بصدق الى هذا الحد أو ذاك ، أو حينما يحدث العكس تماما ، خصوصا فى نطاق البلدان النامية والمتخلفة وحديثة التكوين المعاصر ، حيث نجد ـ كما يقول عدد من الباحثين السوفييت ـ أن الوسط الاجتماعى الواحد فى البلد النامى يفرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتية(١٤) ٠ حيث ينسلخ المثقف عن هذا النموذج الطبقى أو ذاك ويحاول دمج نفسه فى نموذج آخر ، وهو قد ينجح وقد لا ينجح ، وقد يتنقل ويجرب أكثر من نموذج على هذا النحو ٠

وعلى العكس من ذلك فانه يكاد يكون من المستحيل والنادر جدا أن نجد حالة اجتماعية واحدة من غير هؤلاء المثقفين تقوى على انتشال نفسها دفعة واحدة من واقعها الاجتماعى والطبقى الأصلى الى واقع اجتماعى وطبقى آخر باختيارها تحت أى ظرف من الظروف وبنفس الطريقة ما لم تجبر على ذلك بالقوة الثورية التى تلغى وجودها الاقتصادى كخطوة أولى للقضاء على وجودها الاجتماعى والثقافى بمرور الوقت أو الاحتياج الى زمن أطول للقيام بعملية عكسية ، لأن ذلك لو حدث فرضا فانه سيكون أشبه باختيار سمكة البحر لأن تغادر المياه دفعة واحدة لتحيا فى سلام مع حيوانات اليابسة ٠

---

(١٤) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ترجمة الدكتور داوود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ ٠

فنحن لا نستطيع أن ننتظر من فلاح أمي بسيط أو عامل منجم مسحوق أن يتمثل ويمارس الحيـــاة الأرستقراطية وثقافتهـا فورا وبغـير مقدمات طويلة ، أو أن ، ننتظر العكس أيضـــا ، كما يفعل المثقفون من كلا الطرفين بسهولة أكثر · وهكذا لا تنتهى سوء الرؤية وعـدم الوضوح الذى يتحدث عنـه « بوتو مورو » فى هذا الصـــدد وعما اذا كان المثقفون هم أقل تأثرا من الصفوات الأخرى بأصولهم الطبقية والاجتماعية نتيجة لطبيعة نشاطاتهم وأسلوبهم فى الحياة كما يقول فحسب(١٥) بل وأكثر من غيرهم بما لا يقاس على الانتقال من طبقة لأخرى ·

نخرج من كل هذا الى حقيقة أن المثقف والمثقفين بصفة عامة هم بالنسبة للطبقات والفئات التى ينتمون اليهـا أشبه ما يكونوا بالأجرام الخـارجية الدائرة فى محيطها ، ويشكلون نقاط التماس وقنوات الاتصال بين هـــذه الطبقات وبعضها ، واذا ما اضطرت طبقة ما الى افتقاد بعض مثقفيها من جراء عملية التساقط الى طبقات أخرى ـ كحالات استثنائية كما سبقت الاشارة ـ فانهـا قد تعوض هذا الخسران بعلمية جذب مماثلة · وهكذا ننتهى الى أن المثقفين ليسوا طبقة أو طليعة مستقلة كما يقـــال عنهم فى أحسن الأحوال بقدر ما أنهم تعبير هامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة أو المتناقضة فى المجتمع ، انهم ـ كما يقول لينين ـ يجسدون ويعبرون عن تطور المصالح الطبقية والتكتلات السياسية فى المجتمع بأسره ، وذلك بأوعى وأحزم وأدق شكل ممكن للتجسيد والتعبير(١٦) ·

واذا كانت قليلة هى الكتابات والدراسات العلمية التى تناولت فئة المثقفين بصفة عامة حتى الآن فان الأكثر ندرة هو التحليل الجدلى والموضوعى المتعمق لهذه الفئة الاجتماعية الهامة على هـــذا النحو ، خصوصا ما يتعلق بمثقفى البلدان النامية والمتخلفة بالذات ·

فكثير من الكتبات الحديثة الجيـدة التى تتنـاول الطبقات والفئـات الاجتماعية بصفة عامة لا تسقط من حسابها فئة المثقفين بل تتناولهم بصفة جزئية وهامشية وبأسلوب التحليل الوصفى لا أكثر ، فمجموعة من العلماء السوفييت يقدمون لنا فى مصنف جيد وذا أهمية علمية كبيرة عن التركيب

---

(١٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتـور محمد الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٩١ ·

(١٦) لينين : المؤلفات ، المجلد السابع ، ص ٣٤٣ ·

الطبقى للبلدان النامية ، يقدمون لنا وصفا تحليليا لفئة المثقفين فى هـذه البلدان هو فى تقديرنا أفضل ما كتب عن هذه الفئة الاجتماعية حتى الآن وفى هـذه البلدان بالذات فى المرحلة الراهنة ، من حيث نشأتهم ودورهم فى النضـال الوطنى وتذبذب مواقفهم الاجتماعية والطبقية من مرحلة لأخرى ٠٠ الخ ٠ الا أنهم لم يحددوا بدقة طبيعة القوانين الاجتماعية والجدلية التى تتحكم فى طبيعة تكوين هذه الفئة طبقيا وتاريخيا ٠ فهم يقولون مثلا : ليس هناك ضرورة لأن يعكس المثقفون مصالح الطبقة التى خرجوا منها ٠٠ وان مستوى ثورية المثقفين لم يكن دائما متماثلا ٠٠ وان الدور القيادى للمثقفين فى الثـورة الوطنيـة الديمقراطية ذو طـابع مؤقت ومحـدود تاريخيا ٠٠ الخ ، الا أنهم لم يحددوا لنـا بدقة لماذا يحدث كل هـذا ؟؟ وكيف؟؟(١٧) أما بعض الكتابات البرجوازية الاوربية فانها تذهب الى موقف أكثر تعاسة وتشويها لمعنى ووظيفة هذه الفئة وغيرها من الفئات الاجتماعية كالصفوات والجمـاعات العسكرية الأولجاركية والأرستقراطيـات المختلفة ومحاولة احلالها محل الطبقات فى تفسير المجتمع وتطوره التـاريخى وذلك فى مواجهة التفسير العلمى للبقطات(١٨) ٠

وفى ضوء كل ما سبق واضافة اليه نستطيع أن نحدد الخواص والمميزات العلمية الخاصة بالمثقفين وطبيعة دورهم فى :

١ ـ ان المثقفين بصفة عـامة يكونون فئة أو شريحة اجتماعية موزعة رأسيا أو عموديا بين مختلف الطبقات الأساسية فى المجتمع ، وليسوا طبقة أو ممثلى طبقة بذاتها ، وهم أقل الفئات الاجتماعية انسجاما وتماسكا ، بحكم المهنة أو الظـروف أو المرحلة كما هى الحـال بالنسبة للطلبة والمجنـدين أو الأطباء ورجال الدين والمهندسين ٠٠ الخ(١٩) ٠

٢ ـ ان المثقفين بالرغم من أنهم يشـكلون لسـان حال كل الطبقـات والمصالح المتفقة أو المتعارضة والمتناقضة فى المجتمع ويعبرون عنهـا دائما ، الا أنهم ليسوا أكثر قدرة من هـذه الطبقات نفسها على الصمود والتضحية

---

(١٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبـلدان النـامية ، ١٩٧٤ ، ص ٣٥٨ و ٣٩٧ و ٤٠٤ ٠

(١٨) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهرى وآخرون ـ طبعة ١٩٧٨ ، ص ٣٥ ٠

(١٩) المرجع السابق ص ٩١ ٠

فى سبيل مصالحها الحقيقية والدفاع عنها الى ما لا نهـاية أو الانابة عنها ، فهم غير جديرين بمثل هذه المهمة نظرا لأن ثقافتهم ووعيهم هو أشبه ما يكون بالخبـرة المهنية والوظيفية وأبعـد ما يـكون عن الحس والوعى الطبقى السليم(٢٠) ٠

٣ ـ ان عملية التسـاقط التلقائى التى تحـدث بين مثقفى الطبقات المختلفة هبوطا أو صـعودا ، وبالرغم من أهميتهـا الـكبيرة ، الا أنها تظل هى الاستثناء وليس القاعدة ، والتى لابد من تحديد ملامحها بدقة والتعامل معها بحذر ٠

٤ ـ ان أهم دور ايجابى بالنسبة لمثقفى أى طبقة سواء كانوا من أفرادها أو ممن تجتذبهم من أوساط الطبقات الأخرى هو أن يساعدوا هـذه الطبقة على تنمية حسها ووعيها الطبقى ويجعلونها ـ بحكم ثقافتهم ـ تعى مصالحه جيدا وتقوم بتنمية وتطوير هـذه المصـالح والدفاع عنها بنفسها بطريقة أفضل ، وليس ادعاء القيام بكل ذلك نيابة عنها كما يحدث غالبا ٠

العلاقة الجدلية بين الفئات والطبقات الاجتماعية :

لم تكن فئة المثقفين هى الفئة أو الشريحة الوحيدة التى تتميز طبيعتها وعلاقتها ببقية الطبقات الرئيسية فى المجتمع على نحو ما سبق تحليله ، ذلك أنه بالرغم من المميزات الجوهرية التى تحدد العـلاقة المتميزة لفئة المثقفين ببقية الطبقات الرئيسية الا أنها ليست هى الفئة الوحيدة التى تربطها مثل هذه العـلاقات والصلات المتميزة ٠ فهنـاك الكثير من الفئـات والشرائح الاجتماعية الأخرى التى تعيش على هامش التركيب الطبقى للمجتمع وترتبط معه بروابط جوهرية متميزة أيضـا ، وليست متماثلة بالضرورة مع ذلك النمط من الصلات والعلاقات التى تربط المثقفين مع هـذا التركيب الأصلى للمجتمع بل انها قد تكون على النقيض منها فى معظم الأحيان ٠

---

(٢٠) هناك فرق جوهرى وأساسى بين معنى التعلم والتثقف من جهة وبين الحس والوعى الطبقى من جهة أخرى ، فالتعلم والتثقف الذى يتجسد من خلال فئة المثقفين كما رأينـا هو بالرغم من أهميته يظل قضية هامشية وأداة قابلة للتداول٠ بينما يكون الحس والوعى الطبقى حينما يزدهر ويتقدم لا يشكل التعبـير الملزم مصيريا بمصالح الطبقـات فى المجتمع والذى لا ينفصل عنها فحسب ، بل انه الانعكاس الذهنى والمعنوى للوجود الفعلى للطبقـات وممارستها العملية ، وسنتناول هذه النقطة بتفصيل أكثر فى مكان لاحق من هذا البحث ٠

ولما كانت هذه الدراسة تتركز أساسا حول فئة المثقفين الا أننا سوف نتناول فى هذه الفقرة نماذج من الفئات والشرائح الاجتماعية الأخرى وصلتها بالأوضاع الطبقية فى المجتمع بايجاز · فاذا ما حولنا النظر الى هذه الفئات من حيث الكم نجد أنها تتسع وتتعدد بل وتتفرع الى حد كبير وفقا لطبيعة الظروف التاريخية والاقتصادية التى يمر بها التطور الاجتماعى فى هذا المجتمع أو ذاك (مجتمعات متخلفة - نامية - متقدمة) حيث توجد فى كل نمط من هذه الأنماط الاجتماعية نماذج من الفئات والشرائح الهامشية التى تتناسب وطبيعة المرحلة ونوع تركيبها السياسى والاقتصادى، ففى المجتمعات النامية والمتخلفة مثلا تبرز الفئات الدينية والقبلية والسلالية والعشائرية والأرستقراطيات العسكرية والسياسية ، وفى المجتمعات المتقدمة والتى هى فى طريقها الى التقدم تبرز الفئات المهنية والجماهيرية ، كالأطباء والمهندسين والحقوقيين والمثقفين والطلبة والجنود تحت الخدمة العسكرية ، وغير ذلك من المؤسسات المهنية والجماهيرية والنقابية · وهذا لا يعنى اقتصار النمط الأول من هذه الفئات على المجتمعات المتخلفة والنمط الثانى على المجتمعات المتقدمة أو التى هى فى طريقها الى التقدم ، بل ان نماذج هذه الفئات والشرائح الهامشية فى المجتمع غالبا ما تتواجد متداخلة فى كلا المستويين ، والفروق هنا هى فروق نسبية فقط حيث يبرز النمط الأول من هذه الفئات فى المجتمعات المتخلفة بشكل أقوى وأكثر فعالية ، الى درجة تضعف وتضمر معها العلاقات الطبقية الحقيقية فى المجتمع الى حد الظن الخاطىء من قبل التفسيرات البرجوازية والمثالية بعدم وجود نظام طبقى فى مثل هذه المجتمعات وأن هذه الفئات السائدة على سطح الحياة السياسية والاقتصادية هى التعبير الوحيد للعلاقات الاجتماعية والتاريخية فى المجتمع · ومما يساعد على الترويج لمثل هذه الرؤية اللا علمية هو التدنى الشديد لنمط الانتاج الزراعى وانعدام الانتاج الصناعى فى مثل هذه المجتمعات والذى ينجم عنه بالتالى تدنى أكثر فى العلاقات الانتاجية وتشويه للعلاقات الاجتماعية والثقافية بصفة عامة ·

كما أن النمط الثانى من هذه الفئات والشرائح الاجتماعية (أطباء ، مهندسين ، مثقفين ، جنود ، طلبة ، حقوقيين ، صحفيين ·· الخ) هو أكثر ارتباطا وبروزا فى المجتمعات السائرة فى طريق التنمية أو التى حققت نموها بالفعل فى المجتمعات المتقدمة مع الاحتفاظ بنماذج أكثر هامشية وأقل فعالية لبقايا ورواسب فئات وشرائح النمط الأول فى مجتمع تسوده علاقات طبقية أكثر وضوحا ، كتعبير عن حالة القوى الاجتماعية الأكثر تقدما ·

التفسير التاريخى لوجود وتطور الفئات الاجتماعية :

وتبقى مسألة التفسير التاريخى لنشأة وتطور هذه الفئات ، خصوصا ما يتعلق منها بذلك الطـــراز أو النمط المتخلف (القبلية ـ العشائرية ـ السلالية ـ الدينية الوثنية ـ والأرستقراطيات القديمة ٠٠الخ) فهذه الفئات السلالية ـ الدينية ـ الوثنية ـ والأرستقراطية القديمة ٠٠الخ) فهذه الفئات المنتشرة فى المجتمعات النامية والمتخلفة أكثر من غيرها يطغى وجودها على سطح الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصـادية أيضا وتفرض علاقتها ووجودها الهامشى المشـوه وكما لو كان هو التفسير الوحيـد لماضى وحاضر ومستقبل المجتمعات التى تعيش فيها ، فى مواجهة أى تفسير جدلى وتاريخى آخر لأوضاع المجتمع وعلاقاته الطبقية ، هذه الفئات فى مجموعها ووفقـا للتفسير العلمى لا تخرج عن كونها تعبير عن بقايا ورواسب طبقـات وايدلوجيات قديمة فى الماضى ، أو تجسيد لعلاقات طبقية متخلفة سائدة فى الوقت الحاضر ٠

فكل الذين ينتمون من هذه الفئات الى السلطة السياسية ويمسكون بزمامها من مجاميع الأولجاركيات العسـكرية والأرستقراطيات السياسية ، أو يفرضون سيطرتهم وملكيتهم للأرض الزراعية ومن عليها باعتبارها المصدر الأساسى للبناء الاقتصـــادى وغيرها من مصـادر الثروة القومية للمجتمع من تجارة وموارد طبيعية وغيرها والذين قد يجمعون عادة بين كل من هـذه الامتيازات فى آن واحد (السلطة والقوة والملكية) هؤلاء جميعـا يجسدون حقيقة تحالف الطبقة الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع المتخلف بكل مضامينها وأبعادها مهما قال عنهم غيرهم أو ادعوا لأنفسهم غير هذا ، واذا كان الدكتور الجوهرى يؤكد بأن هذه النظرة الماركسية تمثل أساس كل دراسة علمية لموضوع الطبقات فان ماركس يؤكد بقوة على الأساس الاقتصـادى للطبقات وفكرة الصراع فيما بينها الناشىء عن تضارب مصالحها(٢١) ٠ كما أن كل الفئات الأخرى ممن قد لا ينتمون أو لا يتمتعون بالسلطة أو الثروة أو بهما معا ويمثلون مواقع اجتماعية أكثر هامشية وأقل فعـالية وتأثيرا فى مجرى الحياة السياسية والاقتصـادية الراهنة كرجال الدين فى بعض المجتمعـات وبعض الجمـاعات السلالية والعـرقية والعشائرية والمذهبية ذات الأبعـاد الايدلوجية المتميزة ، ليست فى مجموعها أكثر من مجرد تعبير مشوه لبقايا ورواسب أوضـاع طبقية وسياسية واجتماعية قديمة منهارة ذات طموحات

(٢١) د٠ محمد الجوهرى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ٢١٢ و ٢١٣ ٠

ضعيفة ومتخلفة فى الوقت الحاضر ، أو مجرد الميل الى المحافظة على وجودها الحالى وبقاءها كما هى أمام المتغيرات الحديثة(٢٢) ٠

فالفئات الاجتماعية بصفة عامة هى فى المجتمعات المتخلفة والأكثر تخلفا اما تجسيدا مشوها لأوضاع طبقية اقطاعية متخلفة فى الوقت الحاضر ، أو تعبيرا عن بقايا ورواسب أوضاع طبقية وسياسية وايدلوجية قديمة منهارة ٠ أما فى المجتمعات السائرة فى طريق النمو أو التى حققت نموها بالفعل حيث تسود العلاقات الطبقية الأكثر وضوحا فان الفئات الاجتماعية هى مجرد تعبير هامشى عن العلاقات الاقتصادية والطبقية السائدة بصفة عامة وبشكل ما ، قد تختلف طبيعة هذا التعبير من فئة لأخرى ، فكما هى الحال بالنسبة للمثقفين السياسيين فى مجتمع نامى أو متقدم حينما يعبرون عن مختلف المصالح الطبقية المتعارضة والمتناقضة ـ كما سبقت الاشارة ـ نجد المهندسين أو الحقوقيين أو الاطباء الذين قد تضمهم رابطة مهنية واحدة الا أنهم لا يعبرون من خلالها عن قضية مستقلة قائمة بذاتها بقدر ما يعبرون من خلالها عن أصولهم الطبقية وانتماءاتهم السياسية والايدلوجية التى تعكسها ٠ وينسحب الأمر كذلك على الفئات الأخرى من الكتاب والمفكرين والأدباء والفنانين والصحفيين ٠٠ الخ ، مع الفوارق النسبية الواضحة من حيث الدرجة والفاعلية والحدة حيث يأتى المثقفون السياسيون والكتاب والمفكرون فى مقدمة المجتمع ٠

نخلص من هذه النقطة الى أن أى مجتمع لابد وأن يتضمن بجانب طبقاته الرئيسية نماذج لطبقات فرعية قديمة ، كنماذج الاقطاع المتبقى فى ظل مجتمع رأسمالى ، أو فئات طبقية هامشية للطبقات السائدة كالمثقفين والمحامين والاطباء والمهندسين ، أو بذور لنشوء طبقات جديدة كتجمعات العمال والبرجوازية الصغيرة فى ظل مجتمع اقطاعى ، وهو الأمر الذى قد يعترض عليه بعض الماركسيين المتزمتين ممن لا يعرفون سوى تقييم المجتمع الى طبقتين متصارعتين ، الأمر الذى لا يتفق حقيقة والفهم الماركسى العلمى الصحيح للطبقات والذى يؤكد وجود طبقات فرعية بجانب الطبقات الرئيسية ، فغير صحيح ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ ما يذهب اليه بعض الماركسيين من أن الماركسية لا تعرف سوى تقسيم المجتمع الى طبقتين متصارعتين ، اذ نجد من أمثلة تلك الطبقات الفرعية ملاك الأرض أو الفلاحين

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٢١٩ ٠

فى ظل المجتمع الرأسمالى ٠٠ ويضيف الجوهرى قائلا : ان تلك الطبقات الفرعية بصفة عامة تمثل اما رواسب طبقات رئيسية عفا عليها الزمن ، أو خمائر لطبقات رئيسية سوف تتضح ملامحها وشخصيتها فى المستقبل(٢٣) ٠

الرؤية اللاعلمية للفئات والطبقات الاجتماعية :

فى الوقت الذى تحدد فيه الرؤية التاريخية العلمية مفهومها للفئات والشرائح الاجتماعية على نحو ما سبق نجد بالمقابل أن الرؤية المثالية اللاعلمية تتلخص فى هذا الشأن جملة وتفصيلا فى كل ما صاغه وتصيغه النظريات والمذاهب المعادية للاتجاه التاريخى العلمى فى تفسير المجتمع وعلاقاته الطبقية(٢٤) هى رؤية برجوازية فى مبادئها رأسمالية استغلالية فى أهدافها وأغراضها رجعية ولا علمية فى مضمونها وحيقتها ٠

فلقد وجدت البرجوازية الأوربية والمجتمع الرأسمالى بصفة عامة فى هذه الفئات والشرائح الاجتماعية بمختلف أنماطها ضالتها المنشودة فى خضم الصراع والعداء المستحكم للنظرية التاريخية العلمية وتفسيرها الطبقى للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك لكى تحل هذه الفئات والشرائح محل الطبقات فى تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع وقراءة تاريخها بطريقة عشوائية وغير منظمة تحكمها الصدفة والنبوءات القديمة ، بدلا من القانون التاريخى للمجتمع ٠ فهذه الرؤية مثلا تحل الصفوة أو النخبة السياسية محل الطبقة الحاكمة وتفصلها عن المؤسسة العسكرية ورجال الأعمال المهيمنين على الثروة فى مجتمع رأسمالى كالولايات المتحدة الأمريكية ، باعتبار أن كلا منهم يشكل فئة أو صفوة و نخبة مستقلة أو شبه مستقلة عن الأخرى ، بدلا من كونهم جميعا يشكلون تحالف الطبقة الرأسمالية المسيطرة ٠

كما تنظر هذه الرؤية أيضا الى كل التجمعات والنقابات المهنية والفنية بما فيها العمال والفلاحين باعتبار أن كل ذلك لا يعدو كونه مجرد فئات

---

(٢٣) د٠ محمد الجوهرى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ص ٢٢٦ و ٢٢٧ ٠ وانظر فى ذلك أيضا مختارات ماركس ولينين وانجلز الطبعة الألمانية - المجلد ٢٩ ص ٥٠٨ ٠

(٢٤) راجع تفاصيل أكثر فى هذا الشأن ، بوتومورو : الصفوة والمجتمع دراسة فى علم الاجتماع السياسى ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥ وما بعدها ٠

وشرائح اجتمـــاعية قائمة بذاتها ، ويقوم كلا منهـا بمهام وظيفية محـددة فى نطاق البناء الاجتماعى السائد ، لا من أجل تغييره وتطويره بل من أجل المحافظة عليه وزيادة فعالية نظامه القائم وحفظ توازنه كما هو عليـه الآن بصفة دائمة ونهائية وحمايته من الانهيار ، وبتعبير أوضح حفظ توازن النظام الرأسمالى القائم وزيادة فعـــالية علاقاته الاستغلالية السـائدة فى الداخل والاستعمارية فى الخارج وحمايته من السقوط ٠

فالطبقات الاجتماعية تختزل وفقـــا لهذه الرؤية الى مجـرد صفوات وعبقريات فردية خارقة ، والنظم المتغيرة هى مجرد أنساق وعادات اجتماعية ثابتة لا تتغير ، والصراع الطبقى هو مجرد أزمات عارضة ما يلبث المجتمع أن يتجاوزها ويستعيد توازنه الســـابق ، وحركة أفراد المجتمع ونشاطهم اليومى هو مجرد وظائف يؤدونها من أجل استمرار المحافظة على توازن هذا الواقع وحمايته من السقوط ، وفقـــا للمفهوم الوظيفى ٠ كما أن الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم هى ـ كما يرى البرجماتيون ـ ما يحقق ربحا أفضل حتى القتل والكذب والخرافة ، أما التفكير فى المستقبل وفى ما وراء الواقع المعطى فهو ـ كما يرى الوجوديون ـ العدم الذى ينبغى الخوف منه ٠

فكل أصحاب هذه الفلسفات البرجوازية والرجعية المعاصرة من وضعية وبرجماتية ووظيفية ووجودية وغيرها والذين يتبنون هذه الرؤية فى تفسير العلاقات الاجتماعية والطبقية ويدافعون عنها ، هم كلهم سوية ـ كما يقول جارودى ـ يعلنون أو يتظاهرون بتجاهل المادية التى كانت فى القرن الثامن عشر كبرياء البرجوازية الصاعدة وأصبح يجرى كل شىء وكما لو كانت هذه الطبقـة قد استخدمت المـادية للاستيلاء على السلطة واستخدمت المثـــالية للاحتفاظ بهذه السلطة(٢٥) ٠

فالقضية الرئيسية التى تدور حولها كتابات الوظيفيين ـ كمـا يقول نيقولا تيماشيف ـ يمكن تحديدها على النحو التـالى : ان النسق الاجتماعى (وهو اصطلاح يستخدمه الوظيفيون غالبا) يمثل نسقا حقيقيـا فيه تؤدى أجزاءه وظائف أساسية لتـأكيد الـكل وتثبيته ، وأحيانا اتســـاع نطاقه وتقويته(٢٦) كما أن المشاكل والأزمات الاجتماعية ـ على حد تعبير بارسونز

---

(٢٥) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٠٢ ٠

(٢٦) نيقولا تيماشيف : نظرية علم الاجتمـــاع نشأتها وتطورها ، ترجمة د٠ محمود عودة وآخرون ـ دار المعارف المصرية ، ص ٣٤١ ٠

Parson زعيم الوظيفية المعاصرة هى مجرد ردود أفعال لحالات مرضية عارضة تزول بزوال هذه الحالات(٢٧) ولقد جهدت الوجودية — كما يقول جارودى أيضا — لأن تجعل الخوف من المستقبل « الخوف الخاص بالبرجوازية » يشمل البشرية كلها ، فالانسان يقف وجها لوجه أمام العدم ، والقلق والتشاؤم هما النمط المشترك بين هذه الفلسفات جميعا(٢٨) ٠

هذا فيما يتعلق بتفسير الرؤية الوظيفية والبرجماتية المعاصرة وغيرها من الفلسفات البرجوازية فى المجتمعات الرأسمالية الكبرى ورؤيتها للواقع الاجتماعى ، بما فيه الفئات والشرائح الاجتماعية الهامشية واحلالها محل الطبقات ٠

أما اذا طلب من هذه الرؤية تفسير الأوضاع السياسية والاقتصادية الغير متكافئة بين هذه الفئات والتى صارت تشمل شعوبا وأمما بأسرها والتى تجعل القلة المهيمنة أو الصفوة كما يقول عنها « باريتو وموسكا » تملك كل شىء من مصادر القوة والسلطة والثروة فى مقابل حرمان الأغلبية ممن يشكلون قاعدة الهرم الاجتماعى داخل المجتمع المحلى من جهة ، ومجموعة الشعوب النامية والمتخلفة التابعة والملحقة بهذه النظم المركزية للرأسمالية والامبريالية العالمية من جهة آخرى ، فانها تستند فى ردها على نقطتين رئيسيتين لا تخلوان من الخبث والسذاجة فى آن واحد ، الأولى ان النظام الاجتماعى القائم قد تشكل تلقائيا وبصفة نهائية بفعل قوانين اقتصادية واجتماعية وقدرية أيضا ، ولم يكن أحد من البشر قد تدخل فى الغالب ولا يجوز له أن يتدخل حتى ولو لمس فى نفسه القدرة على ذلك ، وقد انتهى فى تشكله هذا الى ما يشبه درجات سلم الصعود أو كراسى السينما أو مقاعد الأوتوبيس أو طابور الصباح فى المدرسة أو المعسكر ، وما على فئات وأفراد المجتمع الا أن يتنافسوا على مواقع المقدمات أو الوسط والمؤخرة على الأقل ، ومن لم يظفر منهم بأى من هذه المقاعد أو الدرجات أو الصفوف المتراصة أو لا يستطيع دفع ثمن ما يريده منها على الأصح فلينتظر قليلا حتى تصنع

---

(٢٧)
Talcott Parsons: Social structure and personality, Copyright (c) 1964 by the free press of Glencoe, U.S.A. P. 112.

وانظر تفاصيل أكثر حول نقد الوظيفية فى كتاب التراث الشعبى وعلاقته بالتنمية فى البلاد النامية ، حمود العودى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٨٠ ، وبالذات الفصل الثانى بصفة عامة ٠

(٢٨) روجيه جارودى : النظرية المادية فى المعرفة ، ص ٤٤٣ ٠

مقاعد اضافية أو تتوفر مقاعد شاغرة أو يتوفر لديه الثمن اللازم ، ومن لم يقتنع بدرجة أو مقعد المؤخرة أو الوسط فليناضل للحصول على مقعد أفضل فى المقدمة أو على مقربة منها(١٩) !!.

ذلك أن كل هذه السلالم والمقاعد والطوابير والمصاعد .. الخ هى مفتوحة أمام الجميع وليست حكرا على أحد ، حتى بالنسبة لمن واتتهم الفرصة للتربع على رأسها أو مقدمتها فانهم قد يتركونها مختارين أو غير مختارين اذا ما وجد من هو أقوى وأفضل وأسعد حظا منهم ، وأكثر كفاءة وقدرة وعبقرية من غيرهم .

ولقد كان « باريتو » وتلاميذه من أصحاب نظرية النخبات أو الصفوات الحاكمة ودوراتها السياسية كبديل عن الطبقات فى سبيل مواجهة النظرية العلمية لماركس هم أكثر المجتهدين تشيعا لهذه الآراء الخاصة بالفئات والصفوات ودوراتها فى السلطة والدفاع عنها ، فالتاريخ « هو مقبرة الأرستقراطيات » بهذه العبارة الأدبية الشاعرة بدأ باريتو يصوغ واحدة من أهم أفكاره السياسية وهى « دورة الصفوة » على أن المتأمل لتحليل باريتو - كما يقول بوتومور - لهذه الظاهرة يتبين على الفور أن هذا التحليل لم يصل فى روعته روعة أسلوبه وطريقته فى الكتابة(٣٠) .

ففى مؤلفه « الأنظمة الاشتراكية » نجده (أى بارتو) يقول : قد يؤدى الهبوط التدريجى للدورة « أى الأفراد » الى تفشى عناصر الانحلال فى الطبقات الحاكمة ، كما قد يؤدى الى بروز عناصر التفوق لدى الطبقات الخاضعة . وفى مثل هذه الحالة يصبح التوازن الاجتماعى غير مستقر ، بل ان أبسط حركة كفيلة بتحطيمه وقد تؤدى الهزيمة أو الثورة الى انقلابات معززة بذلك صفوة جديدة . ومؤسسة أيضا نوعا آخر من التوازن جديد .

كما أن تلميذته « ميرى كولابينسكا » M. Kola Binska قد ميزت بين ثلاثة أنماط لدورة الصفوة هى : اما أفراد من المستويات الدنيا ينجحون

---

(٢٩) راجع تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع فى كتاب س.ى. بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى المعاصر ، ترجمة نزار عيون السود ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣٠) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور الجوهرى وآخرون ، دار المعارف المصرية - الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٦٥ .

فى الانضمام الى الصفوة القائمة ، أو أفراد من مستويات دنيا أيضا يشكلون صفوات جديدة تدخل فى صراع القوة مع الصفوة القائمة ، أو حدوث العمليتين معا(٣١) · فباريتو - كما يقول بوتومورو - يكرس كل اهتمامه لدراسة دورة الأفراد بين الصفوة واللاصفوة ، ومن ثم نجد أن اهتمامه يتحدد مباشرة نتيجة لاختياره لمشكلة « التوازن الاجتماعى » بوصفها الموضوع الأساسى لبحثه ، شأنه فى ذلك شأن الوظيفيين المحدثين(٣٢) ·

وهكذا يقوم الفهم الرأسمالى لعلم الاجتماع البرجوازى بمسخ المفهوم العلمى للطبقات الى مجرد فكرة للحراك الاجتماعى والمصاعد الاجتماعية والشرائح الاجتماعية ·· الخ(٣٣) ·

ولكى تدلل هذه الرؤية التبسيطية على منطقها المضلل هذا فانها لا تكل ولا تمل عن النفخ فى أساطير « هيلتون » صبى بار الجعة المتشرد فى الولايات المتحدة الأمريكية الذى أصبح يملك أضخم شركة فنادق فى أنحاء العالم وتحمل اسمه · أو « أوناسيس » الصبى ماسح السيارات الذى أصبح ملك أساطيل النقل البحرى رصاحب الجزر الأسطورية فى الحسن والجمال · وماسح الأحذية الذى أصبح مليونيرا ، والذى تحدث عنه لينين مبينا حقيقة هذه التبسيطات الساذجة والمضللة فى تفسير التاريخ والعلاقات الاجتماعية ، وافساد معرفتها معرفة علمية صحيحة ، وربما يكون عثمان أحمد عثمان صبى الجراج فى مصر جديرا بأن يقدم لهذه التفسيرات السطحية مثالا حيا اذا كانت الأمثلة السابقة قد غادرتنا الى حياة ما بعد الموت !!

ذلك أن الشىء الهام فى هذا الموضوع كما يؤكد بوتومورو هو معرفة نسبة أعضاء الصفوة الذين أتوا من المستويات الدنيا ونسبة القادرين من أفراد المستويات الدنيا على تحقيق صعودا اجتماعيا ، فواقع الأمر أن ما يقدمه هذا النوع من المنهج التاريخى لا يعدو أن يكون تضخيما فى حجم

---

(٣١) المرجع السابق ص ٦٦ ·

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٧٥ ·

(٣٣) راجع د· محمد الجوهرى : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٧ و ٢٢٨ ·

ومـــدى الـــدورة فى المجتمع(٣٤) · ولقـــد ناقش « سى·بى·بوبوف » C.B. Bobof فكرة الحراك الاجتماعى الرائجة فى علم الاجتماع البرجوازى بصورة ساخرة ومعبرة اذ يقول : ان نظرية الحراك الاجتماعى معـــدة لكى توحى للساخطين الموجودين فى الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعى بفكرة امكانية الصعود الى الدرجات الأعلى والنفـاذ الى الطبقات الأعلى ·· ونتيجة لذلك هناك فرص حقيقة أمـــام كل عامل فى تنظيف الأحذية لكى يصبح مليونيرا ، وكل جندى يحمل فى حقيبته عصا المرشالية!(٣٥) ·

فلقد اتضح من خلال الدراسات الحديثة ـ دحضا لهـذه الأكذوبة ـ ان كبار الموظفين والمديرين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالطبقات العليا فى المجتمع الرأسمالى ، حيث أوضحت دراسة حديثة لبوتومورو فى بريطانيا عن كبار موظفى الخدمة المدنية أن ٨٤٪ منهم ينتمون الى عائلات الطبقة العليا والوسطى العليا الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة فى المائة من مجموع السكان ، وأن أقل من ١٪ ينتمون الى عائلات العمـال الصناعيين أو الزراعيين(٣٦) · كما أن « وليم ميلر » W. Miller قد كشف فى بحث عميـــق عن الأصـــول الاجتماعية لمـائة وتسعين من كبار رجال الأعمـال الأمريكيين خـلال العشر سنوات الأولى من القرن الحالى كشف فيه أن الفكرة القائلة بأن رجل الأعمال النموذجى الناجح يأتى من الطبقات الدنيا فى المجتمع هى فكرة بالية ، ذلك أن أقل من ١٠٪ من الفئة التى درسها قد ولدوا خارج حدود الولايات المتحدة وأن ١٪ فقط يمكن اعتبارهم من « فقراء المهـاجرين » وأن ٨٠٪ منهم أتوا من عائلات أمريـــكية قديمة تزاول أعمـــالا فنية عليا أو هم أبناء أصحاب الأعمال(٣٧) · والرأى عنـــدنا ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ هو أن دراسات علم الاجتماع البرجوازى تحاول تزييف الصورة عن طريق المبالغة فى تقدير مدى هذا الحراك ودوره(٣٨) ·

---

(٣٤) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ١٩٧٨ ، ص ٧٧ ·

(٣٥) انظر س·ى· بوبوف : نقد علم الاجتماع البرجوازى ، ترجمة نزار عيون السود ، تقديم د· طيب تيزينى منشور فى سلسلة الأفكار ، عن دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٧٣ ـ ص ١١٣ وما بعدها ، وبالذات ص ١٢٠ ·

(٣٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ص ١٠١ ·

(٣٧) نفس المرجع السابق ص ٩٥ ·

(٣٨) د· محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ، دار المعارف المصرية ـ ص ٢١٠ ·

واذا ما سؤلت هذه الرؤية أيضا عن سببضرورة اقتصار مقاعد المقدمة فى السلطة والثروة على قلة أو صفوة محدودة من الناس على حد تعبير « موسكا » بينما تقف الغالبية الساحقة من الفئات والمجتمعات الأخرى(٣٩) اما وقوفا بلا مقاعد أو جلوسا على المقاعد الخلفية الرديئة فى أحسن الأحوال ، حيث لا رؤية جيدة ولا طعام شهى ، بلا تغيير حقيقى يذكر رغم تعاقب الأجيال والقرون ، فان هذه الرؤية عموما تستند فى ردها على مبدأين شهيرين فى الفلسفة البرجوازية والرأسمالية لا يخلوان من الخبث والسذاجة معا ، فالقانون البرجوازى المقدس للعرض والطلب وغيره من الفلسفات الرأسمالية يطل برأسه فى هذه اللحظة ليقدم التبرير المشوه لواقع مشوه أيضا ، وهو أن فرص العرض بالنسبة للملكية الاقتصادية المطلقة ومراكز السلطة السياسية محدودة جدا بطبيعتها الى درجة يكفى معها وجود طبقة أو فئة قليلة لكى تمتلك كل شىء وفئة أخرى تحكم كل شىء ، أو فئة واحدة فقط تملك وتحكم فى آن واحد ، وربما يكفى شخص واحد للقيام بهذه المهمة وتلك هى قوانين الطبيعة والاقتصاد عند المتقدمين الرأسماليين وارادة القدر والغيب عند المتخلفين الاقطاعيين ، وكل ذلك فى مقابل الطلب المتعاظم عليها بغير حدود والذى يستحيل تلبيته بأى حال من الأحوال ، وهذا هو المبدأ الأول ٠

أما اذا سؤلت عن الأسباب التى جعلت من هذه الفئة أو القلة بالذات تفوز بامتياز القوة والسلطة والثروة هكذا دون غيرها والى ما لا نهاية ، فان المغالطات المضحكة والمقولات الساذجة لمحاولة نفى هذه الحقيقة والتى من طراز الحديث عن أوناسيس الأسطورة أو هيلتون أو ٠٠ أو ٠٠ الخ اذا ما افتضح أمرها أمام الحقائق العلمية والتاريخية المشار اليها سابقا ، فان هذه الرؤية لا تتردد عن اصدار النظريات والفتاوى النازية والعنصرية القبيحة لكى تتحدث من خلالها عن مبررات بيولوجية وعنصرية وسلالية خاطئة من أجل الدفاع عن هذا التنظيم السياسى والاقتصادى الدولى المشوه الذى تعانى منه معظم شعوب العالم فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ٠

---

(٣٩) لابد من ملاحظة أننا لا نفرق بين الطبقات والفئات الاجتماعية الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، وبين شعوب وأمم بأكملها فى البلدان النامية والمتخلفة تعانى من الاستغلال والتبعية للطبقات الرأسمالية فى الغرب من خلال الاحتكارات الدولية والتقسيم الامبريالى لمناطق النفوذ فى العالم المتخلف ، حيث صار الكل فى ظل المتغيرات الدولية والتقنية الحديثة يرتبطون بقوانين اقتصادية على الأقل شبه موحدة وممركزة جوهريا فى عواصم الميتروبول الرأسمالية وتحت اشرافها ٠

حيث تعمد هذه النظريات والفتاوى الاستعمارية القديمة الجديدة الى القول : بأن الطبيعة التى وهبت الانسان قانون العرض والطلب لكى يوازن احتياجاته الضرورية والكمالية التى لا يمكن الحصول عليها بأنصبة متساوية لكل الناس أو حتى متقاربة ، ولكى يؤدى هـذا القـانون مفعوله بانسجام وبصورة مقبـولة وعادلة للجميع فانها « أى الطبيعة أيضا » قد جعلت من الافراد والشعوب والأمم أناسا ذوى قدرات ومواهب متفاوتة الى حد كبير ، وبما يتناسب عادة وفرص التدرج الاقتصادى والاجتماعى ، بحيث أن عوامل النـدرة الزائدة فى مراكز السلطة السياسية والملكية الاقتصـادية المطلقة مثلا ، تقابلها عوامل ندرة مماثلة تقريبا فى المواهب والعبقريات البشرية المناسبة لها والعكس بالعكس صحيح ٠

فاذا كانت قد وجدت قلة أو فئة من الناس فى هذا المجتمع أو ذاك تملك كل شىء وتتحكم فى كل شىء فان ذلك لم يكن بمحض ارادتها فحسب ولـكنه قدرها أيضـا ، لأن الطبيعة قد منحتهـا دون سواها كل المؤهلات والقدرات العقلية والبيولوجية الخاصة بذلك بحدود لا تتوفر لسواها ٠

واذا كان يوجد عشرات الملايين من الناس والشعوب ممن لا يملكون شيئا أو لم يعد يوجد هنـاك شىء لكى يمنكوه على الأصح ، أو لا يملكون الا الفتات فى أحسن الأحـوال ، فان ذلـك هو قدرهم أيضا وما يتناسب وقدراتهم العقلية والفكرية والانتاجية ، فهناك شعوب وأمم هى وحدها التى تستطيع أن تبدع الحضارة الحديثة وتبنيها ، وشعوب وأمم أخرى قد تقوى على المشاركة فى البناء الى هـذا الحد أو ذاك بينما لا يعجـز غالبية البشر فى الشعوب النامية والمتخلفة عن صنع الحضارة الحديثة أو حتى المشاركة فى صنعها فحسب بل انهم عاجزون حتى عن ادارة شئون أنفسهم سياسيا واقتصـاديا وأنهم قد يسيئون الى حضـارة العصر ويفسدونها لو تركوا وشأنهم ٠

بل ان هناك من الشعوب والمجتمعات من اعتبر مجرد الابقاء على حياتهم عائقا كبيرا أمام بنـاء الحضارة الانسانية والمجتمعات العظيمة كما يسمونها فى الولايات المتحدة الأمريكية٠ ولقد لخص موريس دوفرجيه الفكرة المشتركة لمجمل هذه النظريات العنصرية والنازية فى القول : بأنه من العسير مثـلا أن يتجاوز السود البنيات القبلية البـدائية ، أما الصفر فيمكن أن يرتفوا الى مستوى الدول المعقدة ولكنهم لا يستطيعون أن يعطوها صورة ديمقراطية ، ولكن ما يقدرون عليـه فى أحسن الظن هو أن يبلغوا المستوى الذى كانت

عليه الأمم الأوربية فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، أما الهنود ، وهم يمتازون بذكاء واضح ويتمتعون بمواهب فى التجارة وأعمال المصارف والنقد « الهدام » ، فانهم عاجزون عن ممارسة وظائف الحكم والقيادة ، وعن تنظيم سلطة سياسية ناجحة ، ولن يقدر على انشاء دول حديثة تسير سيرا ملائما الا العرق الأبيض غير الهندى(٤٠) ٠

وهذه الرؤية لا تختلف فى مقدماتها ونتائجها عن الأساطير المصرية القديمة التى كانت ـ كما يقول الدكتر أحمد الخشاب ـ تصور حكام مصر الفراعنة الأقدمين على أنهم من طبيعة مقدسة ٠٠ ويضيف . انه ما من شك أن هذا التصور كان يهدف الى حماية النظام العبودى الذى كان يتألف من المجتمع المصرى القديم(٤١) كما يؤكد أيضا بأن الغزو والسيطرة السياسية والقهر الاجتماعى والطبقى هى الأبعاد التاريخية الحقيقية لمختلف مظاهر التفرقة العنصرية والطائفية والدينية وغيرها(٤١) ٠ كما يؤكد بوتومورو أيضا بقوله : ان التفاوت الاجتماعى يتعلق أساسا بالناتج الاجتماعى الذى تخلقه وتصونه نظم الملكية والارث للثروة والقوة السياسية والعسكرية ، تلك التى تلقى سندا وعونا من معتقدات ومذاهب معينة حتى ولو واجهت مقاومة ومعارضة طموح أفراد بارزين(٤٣) ٠ ويشير الدكتور الجوهرى أيضا بقوله : بأن طائفة غير قليلة من المفكرين ترجع فكرة التفرقة العنصرية الى عوامل تاريخية واجتماعية نشأت عن هجرة أجناس واستقرارها أو اغتصابها لبلاد تسكنها أجناس أخرى ، فالذى يحدث عادة أن الجنس الذى يتولى الحكم فيها ويفرض سلطانه على سكانها الأصليين يحتكر لنفسه أسباب التقدم الحضارى ويحرم منها الأقوام المغلوبة على أمرها بكافة القيود التى يغلها بها ، ومن ثم تتحسن وتتقدم الظروف الاقتصادية والاجتماعية للعنصر القاهر فى الوقت الذى يتردى فيه السكان الأصليون فى الحضيض(٤٤) ٠

---

(٤٠) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم السياسة ، ترجمة جمال الأتاسى وسامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ١٩ وما بعدها ٠

(٤١) د٠ أحمد الخشاب : مقال فى المجلة الاجتماعية القومية بمصر ، عدد سبتمبر ١٩٧١ ص ٧ الى ٤٢ (عدد خاص عن التفرقة والتمييز العنصرى) ٠

(٤٢) المرجع السابق ص ١٩ ٠

(٤٣) بوتومورو : الصفوة والمجتمع مرجع سابق ص ١٤٢ ٠

(٤٤) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ـ دار المعارف المصرية ١٩٧٨ ، ص ٢١٦ ٠

وأخيرا وحينما تعجز هـذه الرؤية عن الدفاع عن نفسها أو الصمود ويصير أولى بها أن تقر بهذه الحقائق وتعترف بهـا بحس علمى متواضع ومحايد فانها تضطر الى عملية الاعتراف بوجود النظـام الطبقى فى المجتمع فعلا ولكن بطريقة مشوهة جدا وبأسلوب فيه من الافساد لحقائق اجتماعية واقتصادية أخرى أكثر أهمية من مجرد نظام الطبقات وحدها ٠

ذلك أن هـذه الرؤية الرأسمالية والامبريالية فى الوقت الذى تصر فيه دائما على خلو مجتمعاتها من الطبقات تقـدم فى الوقت نفسه اعترافا ضمنيا وغير مباشر من خلال حملاتها المحمومة على النظام الاشتراكى ، باعتبار أنه ما يزال هو أيضـا مجتمعا طبقيـا ويحكم بواسطة طبقة خاصـة من البيروقراطيين السياسيين ـ كما يقول دوجلاس ـ Dijilas أحد النقاد اليوغوسلافيين للشيوعية ـ تتضمن كل خصائص الطبقات الحاكمة القديمة ، فالدليل على أنها طبقة خاصة يكمن فى ملكيتها وعلاقاتها المتميزة بالطبقـات الأخـرى ٠٠ ان البيروقراطية السياسية الشـيوعية ـ كما يقول دوجلاس أيضا ـ تستخدم الملكية القومية وتستمتع بها وتتصرف بها(٤٥) ٠

ولقد عقب بوتومورو على هذا الطرح قائلا : ان ذلك فى رأيى تحليل مضلل جدا للصفوات فى المجتمع السوفيتى ، انهـا ليست بيروقراطية على الاطلاق طالما أن أولئك الذين يكونونها « قادة الحزب » ليسوا بيروقراطيين اذا ما قورنوا مثـلا بمديرى الصناعة كبيروقراطيين ٠ ويضيف مورو فى الصفحة التالية قوله : من الخطـأ أن نفترض أن الحزب يحكم لانه يراقب وسائل الانتاج ، لأن الأمر بخلاف ذلك ، فهو يراقب وسائل الانتاج لأن لديه قوة سياسية ٠٠ ولست أقصد القول بأن كبار موظفى الدولة فى الاتحـاد السوفيتى وغيره من الدول الشيوعية ليس لديه نفـوذ انهم فقط ليسوا طبقة(٤٦) ٠

كما أن بوتومورو كان واضحا فى تقييمه الذى أنهى به مناقشة الآراء الماركسية وضـد الماركسية فى طبيعة الطبقـات الاجتماعية حيث يقول : ان الانتقادات التى وجهت الى النظرية الماركسية والآراء البديلة التى عرضت

---

(٤٥) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ـ ص ٩٨ ٠

(٤٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ـ دار المعارف المصرية ، ص ٩٨ و ٩٩ ٠

والتى تعتمد أساسا على تمييز ماكس فيبر Max Weber بين التـــدرج الطبقى والتـــدرج على أساس الهيبة ، لا ترقى جميعها الى أن تكون نظرية جديدة شاملة تستطيع أن تحل محل نظرية ماركس ، وانما هى تقدم لنـا حصرا يتفاوت فى درجة منهجيته للمشكلات البارزة(٤٧) ٠

نخلص من كل هـــذا الاستطراد التفصيلى لهـــذه الرؤية البرجوازية والرأسمالية الاستعمارية فى أوربا الغربية والولايات المتحـدة الأمريـكية فى تفسير الطبقات والفئـــات الاجتمـاعية داخل المجتمع الأوربى وخارجه وتاريخها وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية ، نخلص الى ثلاث نتائج رئيسية بالنسبة لهذه الرؤية وهى : انها رؤية مضللة ولا علمية من جهة واستعمارية استغلالية من جهة ثانية ورجعية متخلفة من جهة ثالثة ٠

● فهى أولا مضللة ولا علميـــة لأنهـا تتجاهل القوانين الاجتمـاعية للطبقات فى المجتمع وتشوهها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، وتحاول احلال الفئـــات والشرائح الهامشية فى المجتمع محل الطبقات الرئيسية ، محولة بذلك القاعدة الى استثناء والاستثناء الى قاعدة فى التفسير العلمى والتاريخى الجدلى للمجتمع وطبقاته وعلاقاته الاجتماعية والانتاجية ٠

● وهى ثانيا رؤية استعمارية واستغلالية واضحة لأنها تهدف بالدرجة الأولى من وراء هذا التشويه التـاريخى والعلمى المضلل للواقع الى المحافظة على المصالح السياسية والاقتصادية الموروثة للطبقات الرأسمالية الأوروبية والأمريكية المســيطرة داخل شعوبهـا وخارج هذه الشعوب على امتـــداد المجتمعات النامية والمتخلفة كلها ، والقائمة على أساس المزيد من اســتغلال وافقار هذه الشعوب واستمرار تخلفها من أجل المزيد من قوة واشباع هذه الطبقات والمجتمعات الرأسمالية الامبريالية ٠

● وهى ثالثـا رؤية رجعية متخلفة لأنهـــا تريد تثبيت الواقع حيث هو الآن وكما هو بلا تغيير أو اضافة ، أو تنتهى به على الأصح حيث انتهت اليه أعلى درجات مصالحها فى الوقت الحـاضر ، واذا لم تسعفها النظريات والفتاوى البرجوازية والعنصرية الفاسدة اللازمة لذلك أمام حقائق التاريخ وقوانين التطور ، فان الكذب والخرافة والشعوذة ومختلف أنواع الدعاوى

---

(٤٧) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضـــايا لتنمية فى العالم الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ ـ دار المعارف المصرية ـ ص ٢١٥ ٠

الغيبية والميتافيزيقية المنحطة أصبحت اليوم من الأمور المستحبة لدى هذه الرؤيا اذا ما وجد أنها تستطيع أن تمد من آجال أصحابها ومصالحهم ولو الى بعض حين ، حيث تتجلى أبعاد هـــذه الرؤية الرأسمالية الرجعية والمتخلفة أيضا من خلال تحالفها المعاصر مع كل الطبقات الرجعية والاقطاعية فى البلاد النامية والمتخلفة ودفاعها عنها فى الوقت الحاضر بلا حدود ٠

ولنعد الآن الى صميم موضوعنا فى هـــذه الدراسة حول فئة المثقفين بصفة عامة والمثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة بصفة خاصة حيث سيتضح لنا من خلال كل الفصول والصفحات التالية من هذه الدراسة لا مجرد الفهم العلمى لحقيقة هـــذه الفئة ودورها المتميز فى المجتمعات النامية والمتخلفة فحسب بل وصدق كل المقولات والبديهيات التى سبق الحديث عنها حول الثقافة والمثقفين والفئات والطبقات الاجتماعية بصفة عامة وما قيل ويقـال عنها من أفكار ونظريات مختلفة ٠

الفصل الثانى

مثقفـــو البـــلدان النـــامية
نشـــأتهم وتطـــورهم

مثقفو البلدان النامية والبداية الخاطئة :

اذا كان قد سبق لنا وأن ناقشـنا فى مطلع الفصل السابق المفهوم الاكثر شمولا وعمومية لمعنى الثقـافة والمثقفين فان موضوعنا المباشر عنـــا هو الحديث عن الثقافة ومثقفى البلدان النامية وما يتميزون به من الخصوصيات والسمات المحلية والاقليمية والقومية التى رافقت النشأة الحديثة للمثقفين المعاصرين لهذه البلدان وأسهمت جوهريا فى تشكيلها بطريقة ما قد تغـاير الأسس الموضوعية والعـــلمية لتكوين المثقف ودوره الطبقى بصفة عامة الى حد ما والتى سبق الحديث عنها ٠

فاذا كان المثقفون فى المجتمعات غير المتحضرة ـ كما يقول بوتومورو ـ هم السحرة والكهان والشعراء والفنانين والملمين بأمور الأنساب ٠٠ الخ ٠ فان هذه الفئة تضم فى المجتمعات المتحضرة الفلاسفة والشـعراء والفنانين والموظفين والمحـــامين والسياسيين(١) ٠٠ فانه يمكن اعتبار فترة البدايات الأولى لحركة الغزو والسيطرة الاستعمارية المباشرة للبلدان النامية والمتخلفة حاليا أو ما صار يعرف فى نظر البعض ببلدان العـالم الثالث(٢) هى مرحلة

---

(١) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ـ مرجع سابق ص ٨٧ ٠

(٢) نحن لا نميل الى استخدام مصطلح « العـــالم الثالث » كتعريف لمجموعة الشعوب والمجتمعات النامية والمتخلفة شكلا وموضوعا ، فبغض النظر عن كون هذه التسمية قد أطلقتها مجموعة الدول الاستعمارية والرأسمالية الكبرى على هذه الشعوب غداة حصولها على الاستقلال السياسى فى محاولة مباشرة وغير مباشرة للبعد بهـــا عن مجموعة المنظومة الاشتراكية والتقارب والتعاون معها ، فان هذه التسمية رغم ما قد حظيت به من شيوع واستخدام حسن النية من قبل الكثير من البـاحثين دون مناقشة فانه لا يتضمن أية دلالة لغوية أو موضوعية سليمة ، اذا كان هذا هو العالم الثالث فأين الأول وأين الثانى وأين الرابع الخ !! واذا كان المفهوم الضمنى للعالم الأول والثانى هما المنظومة الاشتراكية والمنظومة الرأسمالية فأيهما الرقم الأول =

التكوين الجنينى الأول لشرائح المثقفين وأنصاف المثقفين المعاصرين فى هذه البلدان حديثا ، وأن البدايات الأولى لمرحلة النضال من أجل التحرر الوطنى والخلاص من السيطرة السياسية الاستعمارية المباشرة منذ ما قبل منتصف القرن الحالى هى بمثابة الميلاد الحقيقى لهـــذه الشرائح التى ساهمت كل الطبقات والفئات الاجتماعية على اختلاف نزعاتها فى عملية الحمل والولادة · هذا مع ملاحظة أن الطبقات والفئات الغنية والموسرة التى استطاعت بفضل ذلك أن تحصل على فرص أفضل لتعليم وتثيف أبنائها قد قـدمت الاسهام الأكبر فى تكوين عدد المثقفين بالقياس الى الطبقات والفئات الفقيرة فى ظل الســـيطرة الاستعمارية ، الا أن تحليـل المثقفين بالاستناد الى منشـأهم الاجتماعى وحده لا يمكن بحد ذاته أن يؤدى الى أية استنتاجات حول المواقف السياسية للمثقفين ، ففى غالبية البلدان النامية خـرج من الوسط الاجتماعى الواحد رجـال يمثلون الماركسية وكذلك زعماء لمنظمات رجعية عاتية(٣) ·

ولقد كانت طبيعة الظروف السياسية والاجتماعية والتاريخية بشكل عام التى أحاطت بتكوين وميلاد هذه الشرائح من المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة قبيل وأثناء مرحلة النضـــال من أجل التحرر الســـياسى كانت وما تزال هى أشد العوامل حسما وفاعلية فى تكوين وبلورة شخصية هذه الشرائح ومحتواها الفكرى وممارساتها العملية حتى اليـــوم ، الأمر الذى يستوجب الاشارة الى طبيعة هذه الظروف بتفصيل أكثر ·

طبيعة الظروف التى تكون ونشأ فى ظلها مثقفو البلدان النامية :

وحتى نتوصل الى تحديد علمى وموضوعى لملامح وأبعاد هذه الشخصية الاجتماعية لمثقفى هـــذه البـــلدان وبلورة محتواهـا ومواقفهـا العملية

وأيهما الثانى ؟؟ وما هو المحتوى الضمنى للعالم الثالث ؟؟ ثم هل انتهى تقسيم الكرة الأرضية الى ثلاثة عوالم أم أن المستقبل يعد بأرقام عوالم جديدة (رابع وخامس ·· الخ) · هـــذا بالاضافة الى انعدام الصلة المنطقية واللغوية بين الأرقام والمسميات ، حيث يمكن الحاق الرقم أو ربطه بأى اسم ، ولا يمكن تحويل الرقم نفسه الى اسم ، لأن الأسماء مفـاهيم نسبية متغيرة والأرقام نظرية مطلقة ، وهكذا تتأكد ركاكة وخطأ استخدام هذا المفهوم الشائع باسم « العالم الثالث » كما يتضح أيضا أن تعبير البلدان النـــامية أو المتخلفة أو هما معـا هو الأقرب الى الموضوعية ، رغم أن هذا المفهوم ما يزال هو الآخر بحاجة الى مناقشة ·

(٣) مجمـــوعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبـلدان النامية — ص ٣٥٨ مرجع سابق ·

الناجمة عن ذلك لابد وأن نشخص أولا طبيعـــة البيئة والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية التى تكونت ونشأت فى ظلها هذه الشرائح كمدخل تاريخى وجدلى لابد منه لتحديد أبعاد هذه الشخصية من جهة وتأكيدا لحقيقة أن البيئة الاجتماعية والظروف الطبيعية المحيطة اذا كانت هى التى تشكل العـــامل الحاسم فى خلق وتشكيل الكائن الحى نفسه فانها من باب أولى تعتبر أكثر العوامل حسما فى ايجاد وتشكيل الظواهر الاجتماعية عامة بما فيها شرائح المثقفين المعاصرين فى البلدان النامية والمتخلفة فى الوقت الحاضر كواحدة من أبرز الظواهر المعاصرة · ويمكن تحـديد الملامح الأساسية لتلك المرحلة داخليا وخارجيا فى :

(أ) حالة شـاملة من الركود والاستسلام لأشـــد المفاهيم الاقطاعية تخلفا ابتداء من انتشار الأمية والخرافة والجهل والعـزلة مرورا بانحطاط المشاعر القـــومية والانتماء الوطنى(٤) وانتهاء بأبشع مظاهر القهر الطبقى والسياسى والظلم الاجتماعى للطبقات الاقطـاعية المتسلطة والأرستقراطيات العشائرية والدينية والقبلية الدائرة فى فلكها ضد الطبقات الأخرى من عامة الشعب من فلاحين وعمال وتجار صغار (أصحاب ورش ودكاكين) وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى ممن لا تنسجم أو تتكامل مصالحهم مع مصالح الطبقات والفئات المسيطرة (جنود ـ مثقفين مستنيرين ـ جماعات سياسية معارضة ·· الخ) ·

---

(٤) المعروف دائما عن المجتمعـــات والجماعات الاقطـــاعية وشبه الاقطاعية هو تغليبهـا المستمر لمشاعر الانتماء الأسرى والعشـــائرى والاقليمى على حساب مشـــاعر الانتمـاء الوطنى والاجتماعى والوحدة الوطنية والدولة المركزية بصفة عامة بل وتعارضها دائما ، وفى مقـابل الطبقات الاقطاعية التى كان هذا شأنها فى المجتمع الأوربى القديم وما يزال كذلك فى الوقت الحاضر بالنسبة للمجتمعات النامية والمتخلفة تبرز اليوم فى هذه المجتمعات المتخلفة فئة جديدة أكثر خطورة على السيادة والوحدة الوطنية وهى فئة الكمبرادور (الوسطاء التجاريين الدوليين) التى لا تميل الى اضعاف الوحدة الوطنية وعرقلة التنمية عن طريق تغليب الاعتبارات الأسرية والعشائرية والاقليمية على الولاء الوطنى كما يفعل الاقطاع ، بقدر ما أنها تميل الى التحلل شبه النهائى من الانتمـاء الى الوطن واحترام حق المواطنة بأى شـكل من الأشكال وتحولهم الى مضاربين دوليين لصالح الاحتكارات العالمية وتوزيع منتجاتها ، ولا ينظرون الى حق المواطنـة فى وطنهم الأصلى أو يحتاجون اليها الا باعتبارها امتيـــازا تجاريا لهم يستخدمونها من أجل المزيد من نشاط الاستيراد والتوزيع لمنتجات الاحتكارات الرأسمالية الدولية وازالة أية عوائق فى طريقها . والتى ينتمون اليها كمتطفلين على فتـــات موائدها أكثر من انتمائهم الى موطنهم بـكثير ·

(ب) غزو استعمارى مباشر يعمل بلا تردد على تكسير وتحطيم هـذه الأوضاع بحدة وشراسة لا هوادة فيها ، لكى ينفرد بكل الامتيازات السياسية والاقتصادية القائمة من جهة ويعيد ترتيب أوضاعها وتكييفها من جديد بما يتوافق وطبيعة مصالحه الدولية ومضامينها السياسية والاقتصادية المغايرة جذريا لكل ما هو موجود من جهة أخـرى وفى ضـوء مفاهيم وطموحات البرجوازية الأوربية ومضامينها العقلية والتقنية الحديثة(٥) ٠

(جـ) وأمام هذا المتغير الأوربى الاستعمارى الحـاد الذى أمسك بزمام المبادرة فى كل شىء تقريبا ومن خلال التعامل معه بغير تكافؤ وبمرور الوقت حدثت عمـلية استرجاع واجترار تاريخى عميق بطريقة غامضة وباهتـة للماضى التاريخى والحضارى لهـذه الشعوب من كل الفئـات والطبقـات فى المجتمع بلا استثناء فى محاولة سلبية لمواجهة الواقع المتداعى من تحت أرجلهم جميعا قطعة قطعة ، وأشبه ما تكون بعملية البحث عن تعويض معنوى غامض أو « افاقة الموت » كما يقـال أنها تحدث للمحتضر قبـل لحظات الاحتضار الأخيرة ٠

(د) واذا كانت عملية الاجترار الغامض للماضى بهذا الشكل قد عجزت بطبيعة الحال عن رأب الواقع الاقتصـادى والاجتماعى المتصدع والمنهـار أو المحافظة عليـه ، الا أنهـا قد أفرزت بمرور الوقت — ولو بطـريقة غير مباشرة — مجموعة من النتائج الهامة والجوهرية الأخرى وأهمها نمو المشاعر القومية من جهـة والرغبـة الوطنية للتخلص من السـيطرة السـياسية الاستعمارية المباشرة من جهة أخرى ، باعتبار أنها تشكل التجسيد الوحيد لا لمجرد السيطرة الأجنبية على السلطة فحسب بل ولكل المشاكل الداخلية أيضا ، وبزواله تزول كل المتاعب والمشاكل ويسترد الاعتبار القومى والوطنى المهان تحت السيطرة الأجنبية المباشرة ٠ ولقد شاركت كل الطبقات والفئات

---

(٥) يمكن تلخيص أهم النقاط التى ارتكز عليها النشاط الاستعمارى المبكر فى :

١ — تعديل النظم الاقطاعية القديمة بتحويلها من أنظمة اقليمية وعشائرية معـزولة الى نظام ممركز الى حد ما ٠ ٢ — تحطم نمط الانتاج والاستهلاك الاقطاعى القديم المرتبط بالداخل وصولا الى خلق سوق رأسمالية ممركزة تقـوم على أساس تحطيم كل أشكال الانتـاج المصنع محليا وتصدير كل ما يمكن انتاجه من مواد خام واسـتيراد كل ما يحتاجه المجتمع من سلع الاستهلاك ٠ ٣ — ثم اقامة شبكات هائلة من وسائل النقل ولمواصلات التجـارية من موانىء ومطارات وسكك حديدية ٠٠ الخ ٠ تمكن وتسهل انجاح المهام السـابقة والذى يراجع تاريخ مصر والهند فى هذا الشأن يجد أفضل مثل على ذلك ٠

الأساسية فى المجتمع تقريبا فى صنع هـــذا الموقف والنضال من أجله مع بعض الفروق النسبية فى طبيعة الأدوار ونوع الأداة وتغـــاير الأهداف والمقاصد حتى تحقق التحرر السياسى فعلا بعد زمن طـــويل من السيطرة الأجنبية المباشرة ٠

النشـــأة الانتقائية للمثقفين :

والآن وبعد هذا الاستعراض السريع لفترة ما قبل وأثناء مرحلة التحرر السياسى فى البلدان النامية سيكون فى مقدورنا أن نحدد فى ضوئها طبيعة المنشأ والتـكوين الحقيقى لشرائح المثقفين فى هـــذه المجتمعات وما لعبته من أدوار مختلفة حتى الآن ٠ فلقد كان الاحساس العميق بحـاجة الطبقات الاقطاعية المتسلطة فى المجتمع ، وكذلك الجماعات الأوليجاركية (الديكتاتوريات العسكرية) والأرستقراطيات المختلفة الى الدفاع عن نفسها والتعبير عن قلقها وخوفها تجاه واقعها المنهار ، مع عجزها ـ بحكم التقادم ـ عن امتلاك الأدوات والقدرات التعبيرية والتكتيكية المناســـبة لذلك من داخلها ، كان كل ذلك يدفعها بطريقة مبـاشرة وغير مبـاشرة الى افراز مجاميع واســعة من أبنائها والدفع بهم الى مجال التعليم والتثقيف الحديث الذى أتيح فى ظل السيطرة الاستعمارية استعدادا منها للقيام بتلك المهمة فى تصورها ، والتى كانت تحس هى بالعجز عن القيام بها بامكانياتها التقليدية ، أو من أجل الحصول على امتيازات أكثر فى ظل السيطرة الاستعمارية على الأقل ٠

كما أن بقية الطبقات والفئـــات الأخرى الواقعة فى أسفل الســـلم الاجتماعى من فلاحين وعمال وتجـــار صغار وحرفيين وغيرهم من الفئـات الهامشية الأخرى قد فعلت نفس الشىء وبحماس أكثر من خلال بعض الفرص الضيقة التى حصلت عليها فى ظل نفس الظروف ٠ ومن المفارقات العجيبة أن يلتقى هذا النزوع والرغبة شبه الجماعية من كل فئـات وطبقات المجتمع مع رغبة مماثلة من قبـــل السلطات الاستعمارية المباشرة التى ظلت ترغب دائما فى الحصـــول على المستخدمين والكتبة والجنـــود والشرطة المحليين المؤهلين الذين لا غنى عنهم كجانب محلى تابع ومكمل للادارة الاســتعمارية الجديدة(٦) ٠

---

(٦) راجع على باذيب : ثقافتنا الوطنية وآفاق تطورها ، فى كتاب مناقشات حول الثقافة اليمنية ، دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٥ ، ص ١٠٨ الى ١١٤ ٠

وهنا ومن هـذا المنطلق تتضح النشأة الانتقائية للمثقفين فى هـذه المجتمعات منذ البداية فى ضوء مفاهيم قومية انتقـائية ، وليس على أسس ايدلوجية وطبقية ، حيث كان هؤلاء المثقفون لا يعبرون عن طبقاتهم بقـدر ما يعبرون عن الحمارس والمشاعر القومية المشتركة لـكل الطبقات والانتماء الوطنى المشترك · فمنذ الفصول الأولى للدراسة فى الجامعات والمعـاهد ـ كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت ـ كان الطلاب كفئة مثقفة بما يمتـازون به من سرعة الاستيعاب يتمثلون الأفكار القـومية ويتعرفون الى طبيعة الأشياء فى العالم الخارجى والى طراز الحياة الاجتماعية فى الغـرب ويتحولون بأكثريتهم الى أنصار للتغييرات الحاسمة والاصلاحات الجبرية(٧)·

ومن الأمور والعوامل الحـاسمة التى دفعت بهـذه البـداية والنشأة الانتقائية الخاطئة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة الى أقصى مدى ممكن وأجل من اكتشـاف خطئها ، هو أنه حينما بدأت مرحلة النضـال من أجـل التحرر السياسى كانت هذه العناصر المتساقطة أو المنتقاة من مختلف الفئات والطبقات فى المجتمع قد نمت واتسع حجمها أفقيا ورأسيا وصار لها فكرها وثقافتها شـبه المتميزة عن فكر وثقـافة أصولها الطبقية التقـليدية ، وهى عبارة عن مزيج من الخبرة المهنية الوظيفية والمفاهيم الثقافية الغـربية التى جلبها الاستعمار وسمح بنشرها وتداولها كعامل أسـاسى فى تكوينهم الفكرى من جهة والشعور القومى والوطنى غير الواضح وغير المبلور من جهة أخرى ، ووجد من بين أوساطهم من تجاوزوا فى اتجاههم الرأسى مجرد كونهم كتبة وموظفين مهرة ضمن الادارة الاستعمارية أو خارجها الى تأكيد وجودهم كأصحاب وعى وثقافة أكثر نضجا وارتقـاء بالنسبة لأبناء وطنهم بعـامة ، من شعراء وأدباء وكتاب صحافة وقادة نقابيين نشطين بل وزعمـاء حركات ومنظمات سياسية أيضـا ، واضطلعوا بالعبء الأكبر فى اثارة المشـاعر القومية والوطنية وقيادة النضال الوطنى لكل الطبقات والفئات الأخرى ضد المحتل الأجنبى فى مرحلة التحرر السياسى ، ومن أوساطهم أيضـا تبلور التكوين والولادة الحقيقية لمـا نعنيه هنا بمثقفى البلدان النامية منـذ مطلع هذا القرن الحالى وحتى الآن ·

فلقد اكتسب المثقفون ـ كما يقول بوتومورو ـ مكانة رائدة فى الحركات الراديكالية ، ولا يزال دورهم واضحا كما أظهرت ذلك أحداث بولندا والمجر عام ١٩٥٦ وثورة كوبا والحركات المناهضة للاستعمار فى بلاد كثيرة(٨) ·

---

(٧) مجموعة من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ ·

(٨) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٨٩ ·

الاتفاق العلنى والتناقض الخفى بين الفئات والطبقات فى مرحلة التحرر السياسى :

لقد كانت حرارة الحماس القومى للنضال الوطنى ضد الاستعمار من أجل التحرر السياسى تشكل فى مرحلة ما قبل الاستقلال مباشرة ما يشبه دور القاسم المشترك بين مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية . والعامل الحاسم فى تكوين وعيها السياسى ، وفى مقدمه الجميع هؤلاء المثقفين الذين اضطلعوا بدور القيادة السياسية والعسكرية للنضال وتشبعوا حتى الثمالة بفكرة الطموح والحماس القومى والوطنى للاستقلال السياسى . لا باعتباره مجرد انتزاع للادارة والسلطة من المستعمر فحسب بل وغاية فى حد ذاته - كما كان الكل يتصور - لتحقيق الاستقلال الاقتصادى والسيادة الوطنية وبناء مجتمع حديث ومتطور فورا وبصورة شبه تلقائية وبدون مقدمات واضحة أو شروط موضوعية محددة ، فغالبا ما شكل المثقفون فى المجتمعات النامية صفوة راديكالية متماسكة لعبت دورا هاما فى الحياة السياسية فى مرحله التحرر السياسى والقومى(٩) .

وهكذا ففى الوقت الذى ساعدت هذه الظروف على تنمية الشعور القومى الذى أدى الى الاجماع شبه الكامل على مقاومة السلطة الأجنبية والحصول على الاستقلال ، الا أنه قد عمل فى الوقت نفسه على تكريس مجموعة من الثغرات ونقاط الضعف الخطيرة فى حياة هذه المجتمعات حالت دون تحررها الاقتصادى والاجتماعى الكامل والحقيقى حتى اليوم ، والتى لم يبدأ اكتشافها الا غداة الاستقلال الشكلى « الكسيح » . وكانت فئة أو شريحة المثقفين التى كانت تطرح نفسها على أنها الأكثر وعيا وادراكا لمجريات الأمور وتحتل بموجب ذلك موقع رأس الحربة المتقدمه فى عملية النضال من أجل التحرر السياسى ، هذه الفئة كانت هى أكثر الباقين جميعا جهلا بهذه الثغرات ذات الأبعاد الاجتماعية والطبقية والتاريخية فى المجتمع ، وذلك بحكم تكوينهم الانتقائى الخاطىء وطبيعتهم اللاطبقية وتفكيرهم اللاتاريخى واللاجدلى ، ولأن لديهم دائما - كما يقول بوتومورو - ميل نحو طرح مشكلات مجردة بدرجات متفاوتة من الاخلاص ، وهم غالبا ما يوسعون من نطاق هذه المشكلات بمقدرة عالية ، لكن هذا الاتجاه أو الميل يتضمن أنهم غالبا ما يقترحون حلولا غير واقعية ، وأنهم أيضا يتمسكون بالفرعيات ويهملون المسائل الرئيسية وعدم الاتفاق فيما بينهم(١٠) .

---

(٩) نفس المرجع السابق ص ٩٢ .

(١٠) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ٩٠ و ٩١ .

ويأتى فى مقدمة هذه الثغرات ونقاط الضعف تحييد واضعاف بروز العلاقات الطبقية السائدة فى المجتمع والوعى الطبقى المعبر عنها ، وازاحة كل ذلك من ساحة النضال ضد الاستعمار القادم من الخارج والخصوم الطبقيين المتخلفين فى الداخل ، والذين أثبتت التجارب أن أى منهما (الاستعمار والاحتكارات الدولية فى الخارج والطبقات الاقطاعية والبرجوازية والكبرادورية فى الداخل) يستطيع أن يقوم بنفس المهمة فى حالة غياب الآخر أو الانابة عنه فى أداء نفس المهمة المشتركة والتى لا خلاف حولها من الناحية الاستراتيجية وهى المحافظة على الأوضاع والمصالح التقليدية المجسدة لحالة التخلف كما هى وعدم السماح بأى تحديث ايجابى معاصر الا فى حدود ما يضمن تقوية وتدعيم هذه الأوضاع وتكريها أكثر فأكثر فى الداخل من جهة ، وزيادة نصيب القوى الاستعمارية والامبريالية والاحتكارات الدولية فى الخارج من المصالح الاقتصادية والسياسية المباشرة وغير المباشرة فى هذه الأوضاع نفسها من جهة أخرى ٠

ولقد ذهب بول باران الى تأكيد هذه الحقيقة بالقول : بأن الطبقات الحاكمة فى الغرب لديها مصالح خاصة فى استمرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الراهنة فى البلاد النامية ٠٠ وهى تتبنى استيراتيجية لضمان استمرار تخلف الدول المتخلفة تقوم على تأييد ودعم « الجماعات المحافظة والرجعية » فى الدول الأخيرة بما تقدمه لها من مساعدات اقتصادية وعسكرية(١١) ٠

كما أنه قد اتضح مؤخرا وبما لايدع مجالا للشك أن المشاركة الهامشية لتلك الطبقات وتعاطفها فى النضال من أجل الحصول على الاستقلال السياسى لم يكن فى حقيقته أكثر من مجرد رغبة فى استعادة ما أخذته منها سلطة المستعمر الأجنبى من الامتيازات السياسية والاقتصادية وانفرادها بها من جديد ، أو تقاسمها معه على الأقل ، وتنسيق مصالحهما معا فى المستقبل، وهو الأمر الذى حدث بالفعل بعد تحقيق الاستقلال السياسى المزيف ، ولم تكن مشاركتها وتعاطفها هو بقصد تحقيق استقلال سياسى واقتصادى واجتماعى ناجز وايجاد تحولات اجتماعية جذرية على طريق بناء مجتمع متطور جديد ومتقدم كما كانت تظن مجاميع المثقفين وغيرهم من الجماعات الليبرالية والشعبية الأخرى فى المجتمع ٠

---

(١١) د٠ السيد الحسينى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ـ ص ١٢٦ و ١٢٧

فالبرجوازية الكمبرادورية مرتبطة بشكل وثيق بالرأسماليين الأجانب والاقطاعيين المحليين وهى تشكل مع العناصر الاقطاعية ونصف الاقطاعية الركيزة الاجتماعية الرئيسية للامبريالية فى البلدان المستعمرة والمتخلفة(١٢) .

فلقد كان الكل فيما قبل مرحلة الاستقلال يعمل من أجل الحصول عليه علنا ، والكل سرا وبطريقة غير مباشرة يعتقد بأنه صاحب الحق فى قيادة مرحلة ما بعد الاستقلال مباشرة والاستئثار بمنافعها دون أن يكون بحاجة حتى لمجرد اعلان هذه الرغبة أو اشعار الآخرين بها على الأقل . فالطبقات الاقطاعية والأرستقراطيات المسيطرة فى الماضى افترضت بأن الاستقلال هو مجرد استرداد حق تاريخى سلب منها أصلا ، والبرجوازية الصغيرة التجارية والكمبرادورية التى ازدهرت فى ظل السلطة الاستعمارية اعتقدت أيضا أنها صاحبة المستقبل الحقيقى بكل ما تحمله من معانى التجديد والتطوير الحديث الشكلى القائم على أساس التكامل والتبعية للاحتكارات الاقتصادية فى الخارج والاكتفاء بالتعيش الطفيلى على هامشها فى الداخل .

فلقد اضطرت البرجوازية - كما يؤكد مجموعة من العلماء السوفييت - بسبب معاناتها من اضطهاد الاحتكارات الامبريالية ومن تضييقها لمصالحها الطبقية الى مقاومة توسع نفوذ الاحتكارات والى مساندة حركة التحرر الوطنى ولكنها تحاول بالمقابل وبنفس الحماس أن تقيم الحواجز فى وجه الأفكار الاشتراكية والتقدمية التى أخذت تغزو البلدان المتحررة . فالحياة تدفع البرجوازية المتوسطة الى مجابهة الاحتكارات الأجنبية والطبقات القديمة ورأس المال الوطنى الكبير من جهة والى مجابهة البروليتاريا وكل الشغيلة من جهة أخرى(١٣) .

أما بقية الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع ذات التوجه الوطنى والديمقراطى بطبيعتها من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين وطنيين .. الخ ، وذات التركيب والمضمون المضاد جملة وتفصيلا لما سبق ، فهى اما بعيدة نسبيا عن حلبة الصراع المباشر ولم تفصح بعد عن مصالحها ومطالبها الطبقية فى تلك المرحلة بالذات مثل طبقة الفلاحين التى تشكل القاعدة العريضة للهرم الاجتماعى فى البلدان النامية والمتخلفة حتى الآن ، واما أنها ما تزال

---

(١٢) راجع مجموعة الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٤٨ (أنظر من الصفحة الهامش) .

(١٣) المرجع السابق - ص ٢١٨ و ٢٨٨ .

ضعيفة التكوين نسبيا مثل طبقة العمال ، رغم أنهـا ظلت تشكل بمواقفها ومطالبها الوطنية حالة حضور مستمر طوال مرحلة النضال من أجل التحرر السياسى من خلال قياداتهم ومؤسساتهم النقابية والسياسية المختلفة ٠

والفئة الاجتماعية التى شكلت أكثر المواقف حـــدة وفعالية فى هذا الشأن هى فئة المثقفين التى كانت نقطة الارتكاز فى العملية بكاملها بالتنسيق مع كل الطبقات السابقة وبعض الفئات الاجتمـاعية الأخرى ، مثل الجنود والطلبة وبعض أصحاب المهن كالأطباء والمهندسين وصغار التجار « أصحاب الدكاكين » فهؤلاء المثقفين الذين شكلوا همزة الوصل أو ما يشبه القـاسم المشترك بين كل الطبقات والفئات الاجتماعية فى عملية النضـال من أجل التحرر السياسى قد افترضوا من جانبهم أيضـا أن الاستقلال قضية قومية بالدرجة الأولى ووطنية بشكل ما فى الدرجة الثانية ، ولم يكن لديهم بحكم طبيعتهم الانتقائية والهامشية أى تصور محدد وجرىء لكيفية تشكيل مرحلة ما بعـد الاستقلال من النـاحية الاقتصـادية والاجتماعية على غرار ما كانت تضمره وتعتقده طبقـات الارستقراطيات الاقطـاعية القديمـة والتطلعات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة على نحو ما سبق ذكره ٠

ولقد جاءت كل النتائج اللاحقة غداة الاستقلال كافراز جدلى وطبيعى لكل تلك المقدمات السابقة سواء كان الكل يشعر ويعى ذلك بطريقة صحيحة أو خاطئة ، فلقد اصطدمت رغبة هذه الصفوة الجديدة (المثقفون) ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ فى الحصول على الاستقلال السياسى الفورى وتأسيس حكومة وطنيـــة منظمة ومركزية قوية برغبـة ومصلحة الصفوة القـديمة فى الحفاظ على الظروف التى تؤمن لهم امتيازاتهم التقليدية فى ظل الدولة المستعمرة ، خاصة وأن هـــذا الاستقلال المطلوب سوف يرفع قبضتهم عن المنـــاطق التى كانوا يسيطرون عليهـا أو القبـائل أو الجمـاعات الدينية المختلفة(١٤) ٠

فالاستقلال السياسى رغم قوة الحماس القومى والشعبى له وما توفر له من امكانيات غير عادية تتيح بسهولة امكانية تحول اجتماعى واقتصـادى شامل ، الا أنه لم يستطع رغم شعاراته العريضة وحماسه الرنان أن يحقق

---

(١٤) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، دار المعارف المصرية ١٩٧٨ ، الطبعة الأولى ص ٢٦١ ٠

أكثر من مجرد استقلال سياسى ناقص وشكلى تماما ، لا يتجاوز فى معظم الأحيان مجرد تلحين السلام الوطنى ورفع الأعلام الدالة عليه وما شابه ذلك ٠

ذلك أن الاقطاع القديم والنشوء البرجوازى والكمبرادورى الجديد الذى تسلم السلطة الحقيقية كان حتى فى مرحلة النضال من أجل الحصول على الاستقلال يرفض العنف المسلح ضد المستعمر واشراك جماهير الشعب فيه ويكتفى بالعنف السياسى والدبلوماسى الناعم ، فهو لم يدعو قط الى العنف الثورى المسلح ضد الاستعمار ومخلفاته لأنه لم يكن يهدف قط الى قلب الأوضاع التى أنشأها الاستعمار رأسا على عقب ولا يطمع فى أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر واعادة توزيع المصالح بين الطرفين بصورة أكثر ميلا الى تأكيد مصالح هذه الطبقات والاعتراف بها من قبل المستعمر(١٥) بل لقد بلغ الحال بمثل هذه الطبقات الرجعية المتخلفة أن خافت من رحيل المستعمر نفسه ورفضت الاستقلال فى بعض الحالات حينما كانت تشتم أبسط المفاهيم الوطنية والتقدمية المرافقة لهذا الاستقلال٠ ولقد بدت هذه الهوة أوضح ما تكون ـ كما يقول الدكتور الجوهرى ـ فى نتيجة « الاستفتاء » الذى أجرته حكومة روديسيا الجنوبية فى شهر أكتوبر ١٩٦٤ ، وشمل حوالى ستمائة من زعماء القبائل هناك الذين طالبوا فى الاستفتاء بالانفصال عن بريطانيا والحصول على دستور تحكم من خلاله حكومة « من البيض » وعارضوا أفكار الاستقلال الوطنى والمساواة التى كان يطالب بها الزعماء الافريقيون الوطنيون من بنى جنسيتهم(١٦) ٠

حقيقة الوضع الهامشى للمثقفين :

ووسط كل هذه التحولات ومن خلالها كان ـ كما لاحظنا سابقا ـ ميلاد فئة المثقفين كافراز نشط لكل الطبقات والفئات الأخرى فى المجتمع من ناحية واضطلاعها بدور رأس الحربة المتقدمة فى اثارة الوعى القومى وتصعيد النضال ضد المستعمر والحصول على الاستقلال السياسى مع بقية الفئات والطبقات الأخرى فى المجتمع من ناحية ثانية ، واعتقادها الجازم بأنها ستظل كذلك فى موقع الصدارة بلا منازع بعد الاستقلال ووفق ما تشبعت به من مفاهيم قومية ووطنية غامضة ومثالية من ناحية ثالثة ٠

---

(١٥) د٠ السيد الحسينى : دراسات فى التنمية الاجتماعية ، ص ١٣٨ ٠

(١٦) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص ٢٦١ ٠

الا أنه ومنذ صباح اليوم التالى للاستقلال « الكسيح » بدأت الطبقات الاقطاعية والأرستقراطيات القديمة من جهة والبرجوازية الكمبرادورية الجديدة من جهة أخرى يعبر كل منها عن مصالحه الطبقية الحقيقية ويدعمها من خلال التنافس السياسى حينا أو الاقتتال الدموى أحيانا كثيرة من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية كاطار ضرورى لحماية المصالح الاقتصادية والطبقية وتطويرها · حيث بدأت هاتين الطبقتين تتقاسمان السلطة بعد رحيل الشكل السياسى للاستعمار من بلد لآخر ، أو يتناوبان الاستيلاء عليها بالقوة من خلال انقلابات متتالية داخل البلد الواحد ·

ولو أننا قمنا بعملية مراجعة سريعة لخارطة الوطن العربى مثلا فى تلك المرحلة التى ما تزال امتداداتها قائمة حتى اليوم لوجدنا أفضل نموذج لما جرت عليه الأمور حتى اليوم فى الوطن العربى والبلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة · حيث يمكن تقسيم أقطار الوطن العربى الى ثلاث مجموعات رئيسية ، المجموعة الأولى وتتمثل فى كل من مصر والعراق والصومال وليبيا ، وفيها تسلم الاستقلال أولا الطبقة الاقطاعية وكان استقلال سياسيا هزيلا تحت السيطرة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة (الأنظمة الملكية فاروق فى مصر وعبدالاله ونور السعيد فى بغداد وادريس السنوسى فى ليبيا) وما لبثت البرجوازية أن انتزعت منها هذا الاستقلال بالقوة تحت شعار القومية العربية والوحدة العربية الذى كان له أبلغ الأثر فى حسم المعركة لصالح البرجوازية من خلال ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر و ١٤ توز ١٩٥٤ فى العراق والفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ فى ليبيا ، والتى أعطت الاستقلال بعدا وطنيا جديدا هو أكثر عمقا ودلالة بالنسبة لما قبله ، ثم ما لبثت الشعارات القومية التى استخدمتها البرجوازية كأداة تكتيكية وانخدع بها المثقفون الذين راهنوا عليها كأداة استراتيجية ضمن مفاهيم سطحية ما لبثت أن سارت فى تناسب عكسى مع ما يحدث فى الواقع من توطيد وتطوير لمصالح البرجوازية والكمبرادورية من جهة وتقهقر المد القومى الوطنى والتقدمى الحقيقى من جهة أخرى ، حيث يمكن ملاحظة كل ذلك بوضوح من خلال تتبع خط عبدالناصر فى الوطن العربى وما انتهى اليه هذا الخط داخل مصر بالذات فى الوقت الحاضر ، ومثله خط نهرو فى الهند وسوكرنو فى جنوب شرق آسيا ونكروما فى أفريقيا ·

أما المجموعة الثانية فهى عبارة عن أقطار عربية تسلمت فيها البرجوازية الوطنية السلطة من المستعمر مباشرة وسارت فى نفس الخط الذى سارت فيه المجموعة الأولى ، وتتمثل هذه المجموعة فى كل من سوريا

ولبنان وتونس والجزائر والشطر الجنوبى من اليمن(١٧) . أما المجموعة الثالثة وتتمثل فى المغرب والأردن والسعودية والشطر الشمالى من اليمن ، وفى هذه الأقطار نلاحظ أن الاقطاع اما أنه قد قام بتسلم السلطة من المحتل الأجنبى وما يزال يحافظ عليها وفقا لمفهومه كما هى الحال فى المغرب والأردن أو أنه كان يحكم أصلا بعيدا عن الشكل المباشر للادارة الاستعمارية مكتفيا بالتعاون والتحالف معها والخضوع غير المباشر لها ، كما هى الحال فى حالة السعودية والشطر الشمالى من اليمن قبل عام١٩٦٢ ، والذى دخلت فيه البرجوازية مع الاقطاع فى صراع مرير من أجل الاستيلاء على السلطة منذ عام ١٩٦٢ والذى لم يحسم بعد تاريخيا حتى هذه اللحظة .

فالقادة الوطنيون لمرحلة ما بعد الاستقلال لم يكونوا - كما يقول بوتومورو - من المثقفين أو الثوريين فهم فى الهند (مثلا) لا ينتمون لأى من الفريقين كما أن تأثيرهم (أى المثقفين الثوريين) لم يستمر لفترة طويلة اذ واجهه بعد فترة تأثير القادة السياسيين الذين ينتمون لجماعات مهنية أو لقطاع الأعمال فضلا عن المذاهب الأخلاقية والاجتماعية التى صاغها غاندى واستقاها من الفكر الدينى التقليدى ، وما يصدق على الهند نجد له نماذج أخرى كثيرة فى المجتمعات النامية والمتخلفة(١٨) .

وهكذا لم يفاجأ المثقفون السياسيون بالذات فى هذه المرحلة (غداة الاستقلال وما بعدها) أنهم مبعدون عن مركز القيادة السياسية فحسب بل صاروا هم أشد حلقات السلسلة ضعفا وأقلها قدرة على الاتزان والتماسك وذلك حينما فاجأتهم هول الحقيقة التى ما يزالون يعانون من العجز عن ادراكها حتى الآن ، حقيقة أنهم فى مجموعهم وبحكم طبيعة تكوينهم ونشأتهم الانتقائية الخاطئة منذ البداية ليسوا طبقة ولا جديرين بالدفاع عن مصالح طبقة معينة أو التحالف معها فى مجموعهم ، سواء ان كانت فى قمة السلطة أو خارجها ، وان الخيوط الرفيعة التى ألفت فيما بينهم فى الماضى لا تعدوا كونها مجرد

---

(١٧) لابد من ملاحظة أن الفئة البرجوازية الوطنية التى تسلمت السلطة من الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن قد دخلت فى صراع مرير منذ اليوم التالى للاستقلال مع خط اليسار الثورى الذى قاد النضال المسلح فى محاولة لاقصائه عن السلطة والواقع الاجتماعى برمته ، الا أن الأمور قد حسمت بعد ثلاث سنوات من الاستقلال عام ١٩٦٧ لصالح اليسار الثورى نهائيا وسارت الأمور فى غير صالح لخط البرجوازى فى هذه المنطقة من الوطن العربى والتى يمكن أن تشكل الحالة الاستثنائية الوحيدة حتى الآن الى جانب الجزائر الى حد ما ، الأمر الذى سيتضح أكثر فى الفصول القادمة من هذه الدراسة .

احياء وتنشيط لمشاعر « المواطنة » والانتماء القومى التى تجمع فى نطاقها أشد المصالح تناقضا فى أى مجتمع تجاه الخطر الخارجى أو أى تهديد للمصير القومى ، وأنهم قد أخطأوا فى تحميلهم لهذه الحقيقة التاريخية أكثر مما تحتمله طبيعتها حينما ظنوا - باحساس طفولى مراهق - أنها قادرة أيضا على حل القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتناقضاتها الذاتية فى المجتمع وبأساليب مثالية مغرقة فى السذاجة ٠

بل لقد تصدى الكثير منهم بشراسة لفكرة الحل الاجتماعى والصراع الطبقى من خلال المفهوم الجدلى والتاريخى العلمى للعلاقات الاجتماعية بين الطبقات واعادة ترتيب هذه العلاقات جذريا بما يحقق الحل الاجتماعى الجذرى أيضا لمشكلة القهر والظلم والتخلف الاجتماعى بشكل عام ، وذلك كتعبير عن اعتقادهم الطوباوى المريض بأن ذلك سيشكل تهديدا للوحدة الوطنية والوجود الوطنى نفسه الذى حقق الاستقلال السياسى وسيحقق الحل الاجتماعى أيضا بطريقة ما ٠

دور المسألة القومية

ولقد كان هذا الفهم الخاطىء للقضية القومية هو أشد نقاط الضعف خطورة وأكثرها مدعاة للضياع المحقق ليس بالنسبة للمثقفين فى البلدان النامية وفى الوطن العربى بالذات فحسب بل وبالنسبة لمبدأ الفهم العلمى والتاريخى السليم لحركة التاريخ وقوانين المجتمع بصفة عامة ، وذلك بالنظر الى هذه القضية باعتبارها المدخل والحل الحاسم للقضية الاقتصادية والاجتماعية بنفس القدر الذى كانت فيه هى المدخل والأداة للحصول على الاستقلال السياسى من السيطرة الأجنبية ٠

ذلك أن المسألة القومية فى حقيقتها ترتبط جوهريا بقضية الوجود التاريخى والقومى للمجتمع برمته وبكل تناقضاته ومهما كانت طبيعة تركيبه أو المرحلة التى يمر بها ، باعتبارها القاسم المشترك الذى يربط بين كل أفراد المجتمع وطبقاته بلا استثناء بحكم وجودهم وانتمائهم الى مجتمع معين يعيش على رقعة جغرافية معينة ويتمتع بسمات وخصوصيات قومية يتميز بها عن غيره من المجتمعات كاللغة والدين والثقافة والامتداد التاريخى والجغرافى والحضارى المشترك فى الماضى والحاضر ٠٠ الخ ، وحينما يتعرض هذا الوجود للتهديد أو القهر من قبل قوى خارجية فان اثارة المسألة القومية يلعب دورا حاسما فى دفع المجتمع بكامل فئاته وطبقاته الى مقاومة هذا التهديد على نحو ما جرت عليه الأمور فى مقاومة السلطات الاستعمارية

والعنصرية ومخططاتها الرامية الى مسخ هـــذا الوجود وتحطيمه فى كثـير من الشعوب النامية والمتخلفة ذات القوميات المختلفة ٠

وعند هذا الحد يتوقف دور المسألة القومية ، أما حينما ينظر الى المسألة القومية باعتبارها الوسيلة الوحيدة أيضا لحل مشاكل التخلف والتناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل المجتمع الواحد أو الأمة الواحدة فان ذلك هو عين الخطأ وأشد نقاط الضعف وأكثرها مدعاة للضياع المحقق الذى وقعت فيه كثير من الشعوب والحركات الوطنية فى المجتمعات النـامية والمتخلفة غـداة حصولها على الاستقلال السـياسى وفى مقدمتهـا الشعوب العربية التى حاولت عبثـا أن تحقق حريتها ووحدتهـا السياسية وتتبنى الاشتراكية ٠٠ الخ من خلال هذه المسألة القومية بلا جدوى حتى اليـوم ، ذلك أن تحقيق مثل هذه المهام لا يتأتى قط الا من خلال قضية الصراع الطبقى وتفجير التناقضات الاجتمـاعية داخل الاطار القومى نفسه ، والتى ستؤدى حتما الى تخليف وازاحة كل الطبقات والفئات الاجتماعية القديمة عن السلطة والتى تحول أساسا بحكم طبيعتها دون تحقيق المهـام السابقة كما أن ذلك سيتيح للقوى التقدمية الجديدة الامساك بالسلطة ، والقادرة وحدها على انجاز تلك المهـام السابقة على أسس اجتماعية وطبقية أيضا ٠

ولأن هذا المفهوم قد انقلب على رأسه تماما فى أذهان المثقفين فى البلاد العربية وغير العربية من مجموعة الشعوب النـامية والمتخلفة فانهم قد وقعوا نتيجة لذلك فريسة سهلة لأشد نقـاط الضعف خطورة ومدعاة لاقتيادهم بسرعة الى المصير الحقيقى التعس الذى كان ينتظرهم بطبيعة الحال على حين غرة كمجرد فئة متشردة من الناس على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية لكل الطبقات والفئـات فى المجتمع والتى أخذت تحتل مواقعهـا السياسية والاقتصـادية والاجتمـاعية بعنف وبلا هوادة ، وبالذات مجاميع الاقطـاع القـديم ومجاميع البرجوازية والكمبرادور الجـديد الذين أخذوا ينسقوا بين مصالحهم جميعا قديمة كانت أو حديثة مع الاستعمار الجـديد من موقع السلطة وفى ظل الاسـتقلال المزيف غير عابئين بشىء مما يدور فى أذهان وعواطف المجتمع بصفة عامة وهؤلاء المثقفين الطيبين بصفة خاصـة ، والذين ما لبثوا بمرور الوقت أن أدركوا مأساتهم كفئة تعيش بلا هـوية حقيقية ممزقة الوجدان والمشاعر ، وتقيم على أرضية اجتماعية شديدة القلق وأدعى الى الانهيار وعدم الاستقرار ، لا تربطها ايديولوجية محددة كالفئات الدينية مثلا ، ولا مصالح مادية ومهنية ملموسة كالأطبـاء والمهندسين والحرفيين ، وأبعـد ما يكونون فى مجموعهم عن الانتمـاء الطبقى الى أى من الطبقات

الرئيسية فى المجتمع كطبقة الاقطـــاع أو الفلاحين أو البرجوازية الناشئة أو الطبقة العمالية التى كانت وما تزال فى دور التكوين ٠

انهم هجين تجربة أول ولادة اجتمـاعية مشـوهة وغير ناضجة لـكل الطبقات والفئات الســـابقة فى كل مجتمع من مجتمعات البلدان النـــامية والمتخلفة فى العصر الحـديث ، انهم ـ كما يقول موريس دوفرجيه ـ بحق **أناسا مشردين حقـا** أو أناسا اقتلعت جذورهم من أرضها ، أناسا بؤسـاء مطرودين من جمـــاعة قديمة لا يقبلونها ومن جمـــاعة جديدة لا يرقى اليها مستوى حياتهم وثقافتهم(١٦) ٠ ولقد تبلور هذا الوضع الهامشى لهذا المولود المشوه والمتشرد وجسد نفسه أكثر فأكثر بمرور الوقت من خلال مجمـوعة من المميزات والخصائص البارزة التى اتسم بهـا مثقفوا البلدان النـــامية والمتخلفة ابان مرحلة التحرر السياسى وما بعدها وأهمها :

(أ) البعد الهامشى عن طبقاتهم وجماعاتهم القديمة وعدم القدرة على تكوين طبقة أو جماعة اجتماعية جديدة متماسكة ٠

(ب) التذبذب الشديد فى اتخاذ المواقف السطحية المتطرفة بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، مع الاستعداد للعب الأدوار المتناقضة فى وقت واحد ، أو من وقت لآخر بالنسبة للفرد الواحد ٠

(جـ) سوء الفهم العلمى والتاريخى للمسألة القومية وطبيعة دورهـا السياسى والاجتماعى فى حياة أى مجتمع أو أمة من الأمم ٠

(د) الاسراف فى النقد النظرى والاحجام عن التضحية والفعل العملى الا قليلا ، فهم غالبـــا ما يفشلون فى المواءمة والتوفيق بين ما يقولون وبين ما يفعـــلون أو بين ما يظنـــون أنهم قادرون على فعـــله وبين ما يستطيعونه فعـــلا ٠

(هـ) سوء الرؤية وانعدام التمييز الجيد بين ما هو أســاسى وما هو ثانوى فى تعاملهم مع بعضهم أو مع الغـــير ومع الواقع برمته الذى غالبـــا ما يتعاملون معه من مواقع هامشية وليست مصيرية ٠

(و) انتشار النرجسية وعشق الذات وتضخيمها المقرون غالبا بالميل

---

(١٩) موريس دوفرجيه : مدخل الى علم الســـياسة ، ترجمة جمال الأتاسى وســـامى الدروبى ، دار دمشق للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ ٠

الى استثمار حالة التخلف القـــائم بفرض انسهم عليه والبحث عن مصـــالح طفيلية متخلفة من خلاله ٠

(ز) التشرد وعدم الاحساس بالأمن والاستقرار النفسى والاجتماعى والعائلى تحت مختلف الظروف والتعرض لنوبات الحساسية وانهيار التوازن الشخصى والنفسى باستمرار ٠

رحلة المثقفين نحو العودة الى الأصل :

وبينما هذا التهميش والتشرد الحياتى المرير الذى وجد مثقفو البلدان النامية والمتخلفة أنفسهم فى أتونه غداة الاستقلال يفعل بهم فعـــله الذى لم يكونوا يتوقعونه بهذا الشكل ، حدث ما يشبه عملية جزر جديدة فى مقابل عملية المد القديمة من قبل الطبقات الاجتماعية بالنسبة لهؤلاء المثقفين ٠

فاذا ما تذكرنا ما أشير اليه فى مكان سابق من هذا البحث عن كيفية النشأة الخاطئة الأولى لهذه الشرائح الاجتماعية المثقفة كافراز انتقائى مؤقت من كل الفئات والطبقات الاجتماعية فيما يشبه عمـــلية مد بحرى صاخب بفعل ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية معينة ، فان ما حدث فى الماضى القريب ومنذ مطلع الستينات وما قبلها بقليل وحتى الآن هو حدوث عملية « الجزر » المعاكس تمـــاما ، وبتعبير أوضح فان كل الطبقـــات والفئـــات الاجتمـــاعية التى أفرزت هـــذه الشريحة من المتعـــلمين والمثقفين والكتبة والسياسيين بالذات وألفت بينهم روابط وهمية مؤقتة فى مواجهة ظـــروف وأوضاع مرحلة معينة (النضال ضد الحكم الأجنبى والحصول على الاستقلال السياسى وتنمية مشاعر المواطنة القومية) هى اليوم ومنذ غـــداة الاستقلال تقوم بعملية عكسية تماما ، حيث تنقسم جماعات الصفوة الجديدة ــ كما يقول الدكتور الجوهرى ــ على نفسها مكونة عدة معسكرات تلعب الانتماءات القبلية السابقة أو الانتماءات الاقليمية أو غير ذلك من التعصبات القديمة ، تلعب دورا كبير الشأن فى تغذيتها وتدعيمها(٢٠) ٠

أى أن هذه الطبقات والفئات الأصيلة فى التركيب الاجتماعى قد قامت وما تزال فى مرحلة الاستقلال السياسى بعمـــلية جذب وامتصاص عكسية لهـــؤلاء المثقفين الذين أفرزتهم بالأمس ، مســـتفيدة من نقـــاط الضعف

---

(٢٠) د٠ محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ ــ ص ٢٦٤ ٠

والتهميش والتشرد الحياتى الذى آل اليه هؤلاء التعساء ووجدوا أنفسهم فى أتونه ، فكل واحدة من هذه الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والفئات الدينية القبلية والأرستقراطيات العشائرية المتخلفة صار كل يحاول الفوز بنصيب الأسد من هذا الصيد الثمين المقطع الأوصال ، ليستفيد من مهاراته المهنية والسياسية والفنية النـــادرة فى سبيل الدفاع عن نفسه وتنمية مصالحه والتغلب على منافسيه ، سواء ان كانوا فى السلطة أو خارجها ، وبالطـــرق المباشرة وغير المباشرة ٠

وحتى الاستعمار نفسه الذى ارتحل بشكله وبقى بمضمونه ، قد دخل حلبة المنافسة بطريقة مباشرة للحصول على نصيبه الوافر من هذه السلعة الرائجة والتى كان له الدور الأساسى فى صنعها منذ البداية وحصل من بين عناصرها على كل ما يحتـــاجه من أدوات وضمانات تكريس بقـــاءه وتأمين مصالحه الاقتصادية والسياسية بصورة ربما كانت أكثر فعالية من ذى قبل تحت مظلة الاستقلال السياسى المزيف فى معظم المجتمعات النامية والمتخلفة حتى الآن ٠

وهكذا سوف يصبح من المحتم ـ كما يقول الدكتور محمد الجوهرى ـ كلما أراد المجتمع استبدال الادارة التقليدية البالية والعاجزة بادارة عصرية جديدة وكلما أرادت الدولة الاضطلاع بوظائف وأعبـــاء جديدة ، كلما وجد هذا المجتمع نفســه مضطرا الى الاستعانة بطبقة من المتخصصين وتشجيعهم ماديا وأدبيا ، بل والعمـــل على اعدادهم وتأهيلهم اذا لم يكونوا موجودين أصلا(٢١) وبذلك أصبحت الطـــريق مفتوحة الى مراكز الســـلطة الادارية والسياسية والفنية أمام كل من يرغب من هؤلاء المثقفين المهرة وشبه المهرة ، بشرط أن يؤدوا مهامهم كموظفين ومهنيين وفنيين لا أكثر ، ووفقا لمـا تقضى به طبيعة التركيب الاقتصادى والاجتماعى السائد وتنميته والمحافظة عليه واحترامه ، والذى لا يعدو كونه فى الواقع مجرد نظم اقطاعية متخلفة فى الداخل أو برجوازية طفيلية تابعة للخارج أو مزيج من هذا وذاك ، وليس وفقـــا لطموحاتهم وافتراضاتهم المثالية القديمة ، ولا حتى عواطفهم الوطنية والقومية الهشة ، والتى لابد وأن ينحوها جانبا وهم يقومون بمهامهم الوظيفية الجديدة فى اطار التنظيم الاقطاعى هنا أو البرجوازى هناك ، ولا مانع من أن يحتفظوا ببعض مفاهيمها المهذبة والمؤدبة لتسلية أنفسهم فى أوقات الفراغ والمناسبات العامة وبعض أعمدة الصحف فى أحسن الأحوال ٠

---

(٢١) المرجع السابق ص ٢٥٤ ٠

كما أن الأماكن الشاغرة التى خلفها الاستعمار فى مؤسساته الاقتصادية والتجارية الرسمية وغير الرسمية والمؤسسات الجديدة التى تقوم البرجوازية بتنفيذها حينما تكون على قمة السلطة أو متحالفة معها على الأقل قد فتحت هى الأخرى أبوابها الواسعة أمام هذه العناصر المثقفة والمؤهلة بمغريات مادية أكثر جذبا ، وشروط سياسية ومعنوية أكثر قسوة ومهانة ، وحتى الفئات الاجتماعية التقليدية الأكثر تخلفا من قبلية وعشائرية وارستقراطية ودينية متزمتة قد رغب كل منها أيضا فى الحصول على نصيب معين من هذه العملة القابلة للتداول والرواج قبل غيرها (المثقفون) اما بحكم الانتماء الأصلى أو الاستعارة المباحة فى هذا الشأن ، ملوحة بما لديها من مغريات وشروط · وهكذا صار الآمر بالنسبة لهؤلاء المثقفين يسير وفقا لمبدأ : بقدر ما تعطى تستلم واذا لم تقبل فغيرك مستعد ·

ولم يتوقف الامر هكذا عند مجرد الخيارات التى لا بديل عنها فى كل الحالات السابقة ، بل لقد تعداه الى ما هو أكثر من ذلك بكثير حيث صار مجرد الاعتذار عن قبول أى من الخيارات السابقة وعدم حصول الفرد المثقف على هوية اجتماعية وسياسية تثبت انتماءه لأى منها دليل تهمة كاف لحرمانه من شهادة حسن السير والسلوك فى أحسن الأحوال ، أما لو اشتم منه رائحة رأى مغاير فان فصل رأسه عن جسده هو أقل العقوبات استحقاقا له وأكثرها قربا من مبادىء حقوق الانسان بجانب ما أحدثته وسائل العصر وتكتيكاته المتطورة من وسائل القهر والتعذيب والتشويه والعبث بانسانيته قبل موته ، والتى تحرص هذه الطبقات والفئات المتخلفة على استيراد وتطبيق أحدث منتجاتها وخبراتها قبل حرصها على مكافحة أمراض التيفود والبلهارسيا ورفع القمامة من الشوارع · وهكذا فان القليلون ممن قد يتورعون عن القبول بأى من الخيارات السابقة لا يستطيعون الصمود طويلا بدون الحصول على شهادات حسن السير والسلوك الا من رحم ربى !!

وهذا لا يعنى أبدا أن هذه الأطراف الاقطاعية والبرجوازية الطفيلية وغيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى ذات الطابع السلبى والمتخلف هى وحدها التى تتقاسم هذه الغنيمة بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، ذلك أنه بالرغم من أنها قد فازت بنصيب الأسد الا أن طبقات وفئات اجتماعية أخرى ذات طابع ايجابى وطنى وتقدمى قد استطاعت أن تمتص هى الأخرى نسبة محدودة من هذه العناصر المثقفة بحكم ضعفها وكونها ما زالت فى دور التكوين كالطبقة العاملة ، أو فى دور النقاهة وبداية الوعى والاحساس

بالذات كطبقة الفلاحين وما ينبثق عن كل ذلك من هيئات ومؤسسات نقابية وجماهيرية مختلفة ٠

فلقد تمت عملية الاقتسام هـــذه فى جانب أساسى منهـا على أساس الانتماء الأصولى وتطبيق مبدأ « العودة الى الأصل »(٢٢) كما نفذت فى جانب آخر على أساس انتقائى وعشوائى واسع النطاق ٠ حيث وجد من بين عناصر هـــؤلاء المثقفين ممن ينتمون الى أصول اجتماعية فقـيرة « عمـالية وفلاحية وبروليتارية مضـطهدة » من يتبنى بحرارة مصـــالح الطبقات الاقطـــاعية والبرجوازية الكمبرادورية ويدافع عنها الى هـــذا الحد أو ذاك ، والعكس صحيح ٠ وهكذا فان الوسط الاجتماعى الواحد فى البلد النامى ـ كما يقول مجموعة من العلماء السوفييت ـ يفـــرز رجالا يتبنون الماركسية ويدافعون عنها كما يفرز زعماء لمنظمات رجعية عاتية(٢٣) ٠

كما أن الكثير من هذه العناصر قد سحقهم هول مفاجئة كون المثقفين ـ حقيقة ـ هم هكذا مجرد تركة يتم اقتسامها أصوليا وعشوائيا بين مختلف الطبقات والفئات الأساسية فى المجتمع ، وانهم لم يكونوا كما تصورا أنفسهم فى مرحلة سابقة ، باعتبارهم طليعة موحدة لكل فئـــات المجتمع وطبقاته بلا منازع وربما طبقة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شىء من أعلى ، حيث فشل هؤلاء تماما فى القـــدرة على التكيف مع أى طرف من الأطراف أو المواقف الســـابقة أو التـوفيق بينمـا تشبعت به نفوسهم من عواطف ومفاهيم قومية وليبرالية وطنية وبين ما فاجأتهم به حقائق الواقع ، وأصيبوا بحالة من الاستلاب الفكرى والاجتماعى المروع ، وانتكاس معنوى ونفسى خطير أودى بحياة أكثرهم بصورة مباشرة وغير مباشرة(٢٤) ٠

---

(٢٢) أقصد بفكرة أو مبدأ العودة الى الأصل أن المثقف ذى الأصول الطبقية الاقطـــاعية أو البرجوازية والرأسمالية فى البلدان النامية بالرغم من تبنيه لأفكار وتطلعات لبرالية وقومية وتقدمية أيضا فى مواقف علنية معينة خلال مرحلة ما قبل وبعد الاستقلال مباشرة ، الا أنهم قد لاذوا فى مراحل لاحقة الى أصولهم الطبقية وتبنوا مواقفها ومصالحها بعمق ضمن عمـــلية الاقتسام المشار اليها آنفا ما عدا بعض الحالات الاستثنائية التى تم اقتسامها أو وزعت على الأصح على أساس عشوائى بين مختلف الطبقات والفئات من خلال قناعات سياسية وشخصية ٠

(٢٣) مجمـــوعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النـــامية ترجمة الدكتور داوود حيدو ومصطفى الدباس ، الطبعة الثانية ـ منشورت وزارة الثقـــافة بدمشق

(٢٤) هناك العديد من الأمثلة والحالات الكثيرة لهذا النوع من المثقفين التعساء الذين انتهى بهم الأمر الى الانتحار البطىء من خـــلال الادمان على المشروبات والمخـــدرات والميل الى الانطواء النفسى الشديد واللامبالاة والاستهتار وانعدام التركيز النحنى والميل بدلا من ذلك =

ولا ننسى فى نهاية هـــذه النقطة أن نشير الى طراز آخر من المثقفين الذين خضـــعوا لمبدأ الاقتسام هذا ، ولكن ليس على أساس محلى بل على أساس دولى ، حيث تردت فى نفوسهم فكرة الانتماء الوطنى والقومى تحت أى اعتبار من الاعتبارات المشار اليها سابقا ، وراح كل منهم يبحث عن هوية دولية أخرى يستغنى بها عن هويته الوطنية الأصلية بطريقة مبـاشرة وغير مباشرة ، اما من خلال الهجرة والانضـــواء تحت مظلة المنظمات والهيئات الدولية المختلفة التى تشكل اليـــوم مركز جذب قوى لأفضل القـــدرات والكفاءات من هذه الشعوب ، والانقطاع الـكلى عن الوطن ، أو البحث عن جنسيات أخرى من خلال التشيع السياسى والفـــكرى لهذه البؤرة الدولية أو الاقليمية أو تلك ٠

عوامل تيسير اقتسام المثقفين بين مختلف الطبقات فى المجتمع :

ولقد ساعد ويسر هـــذا الاقتسام أو الانقسام مجموعة من الأسباب والعوامل الموضوعية والواقعية الرئيسية وأهمها :

(أ) طبيعة الفكرة المثـــالية الخاطئة التى بنى هـــؤلاء المثقفون عـلى أساسهـا وجودهم وتكوينهم منـــذ البداية ، باعتبارهم طليعة ســـياسية واجتماعية موحدة لكل الطبقات وربما طبقة جديدة فوق كل الطبقات قادرة على صنع كل شىء وفق مفاهيم وفروض مثالية وغير علمية فى مرحلة معينة مما أفقدهم القدرة على الاحتفاظ ولو بالحـد الادنى من التماسك أمام أول اصطدام حقيقى مع الواقع غداة الاستقلال من المحتل الأجنبى ٠

(ب) طبيعة الأصـــول الطبقية والاجتماعية المختلفة والمتناقضـــة التى قدموا منها منذ زمن قصير نسبيا ، والتى ما تزال قريبة العهـد بهم جدا ، وتشكل الاطار المرجعى الحقيقى لغالبيتهم العظمى فكرا وسنوكا على الأقل ، رغم كل ما أعلنوه وغالطوا به أنفسهم بأنهم قد انفصلوا عن تلك الأصـــول وتخلوا عن مفاهيمها الى غير رجعة ٠ حيث ما كادت الأرض الهشة والمصطنعة التى يقفون عليها أن تنهار من تحت أرجلهم حتى وجدوا فى أطرهم الطبقية والاجتماعية القديمة تلك ملاذ أمنهم ووجودهم الحقيقى ٠

= الى الانتحار المباشر أو الجنون فى بعض الحالات الشائعة والتأزم النفسى الحاد بصفة عامة، ففى اليمن مثـــلا تصل نسبة المثقفين من هذا النـــوع الى ما يقارب ٣٣٪ ، وذلـك على نحو ما سيتضح فى الفصول القادمة التى سنتحدث فيها عن المثقفين اليمنيين بالذات كنموذج تطبيقى لهذا البحث ٠

(ج) افتقار الطبقات الاجتماعية القديمة والجديدة فى المجتمع بحكم تخلفها - رغم سيطرتها على السلطة - الى الخبرات والمهارات الذاتية وحاجتها الملحة لهؤلاء المثقفين لمواجهة ظروف ومتغيرات العصر الجديدة والمواءمة بينها وبين طبيعة مصالحها الحقيقية والعمل على تنميتها فى ضوء هذه المتغيرات ومن خلالها ، وذلك بالرغم من تواضع تلك الخبرات والمهارات الثقافية والفنية التى يملكها المثقفون غداة الاستقلال على الأقل ، والتى لم تكن تتجاوز فى كثير من الأحيان المراحل الأولى من التعليم . حيث كان المواطن العادى ولا يزال فى البلاد النامية - كما يشير بلانديه - يميل الى الربط بين « النظام » أو « السلطة » واجادة استخدام القراءة والكتابة وسط شعب أغلبه من الأميين(٢٥) كما أن ذلك كان وما يزال هو أقصى ما تتطلبه الطبقات الرجعية المسيطرة فى هذه الشعوب من أجل ادارة مصالحها المتخلفة وخدمتها بل انها لا تسمح بأكثر منه فى الغالب الأعم .

(د) ان السلطة الاستعمارية حينما رحلت بشكلها السياسى قد بنت استراتيجيتها من أجل المحافظة على بقاء نفوذها ومصالحها الاقتصادية بالاعتماد على القوى والطبقات التقليدية القديمة بالدرجة الأولى (الاقطاع والأرستقراطيات السياسية والعسكرية والعشائرية الدينية المتزمنة .. الخ) بعد أن كانت قد نجحت فى افساد ذوقها ونمط استهلاكها وحولته من استهلاك مغلق ومحدود متجه الى الداخل الى استهلاك مفتوح حديث ومسرف للسلع الرأسمالية المستوردة من الخارج ، كما اعتمد من ناحية اخرى على الطبقة البرجوازية والكمبرادورية الجديدة كحليف سياسى ووسيط اقتصادى تابع ونشيط ومستفيد ، وضمن الاستعمار بذلك استمرار نفوذه السياسى ومصالحه الاقتصادية من خلال وجود أى من هاتين الطبقتين فى السلطة ، وليس من خلال الاعتماد على بعض العناصر السياسيه المثقفة على أساس ما كانت تطرحه قبيل الاستقلال من الآراء والمفاهيم الاصلاحية والليبراليه فى التحرر الوطنى وفى اطار من التعاون والتعامل من موقف الند للند ، والتى كانوا يرددونها حينما كانوا يتقدمون الصفوف فى النضال من أجل الاستقلال .

بل لقد همس الاستعمار فى آذان هؤلاء المثقفين السياسيين أثناء وبعد رحيله بما فيهم الذين كان قد نجح فى تجنيدهم من قبل لخدمة مصالحه

---

(٢٥) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧٣ .

وضمهم الى صفه ناصحا اياهم بأن يتخلوا عن تلك المفاهيم وينسقوا مصالحهم المستقبلية من خلال القوى الرئيسية في المجتمع من الاقطاع والبرجوازية المتطفلة والكبمرادور ، وآن يديروا مصالحها من موقع السلطة ، الأمر الذى نفذ بالفعل فى كثير من الحالات وأدى فى الوقت نفسه الى انهيار موقفهم وتفككه بسرعة وعجزهم عن الصمود والمقاومة لوقت أطول ٠

(هـ) وبالاضافة الى كل العوامل السابقة التى ربما تشكل خصوصيات مرتبطة بمثقفى البلدان النامية والمتخلفة وظروف تكوينهم ونشأتهم ، لابد وأن نشير الى وجود الحقيقة العلمية والتاريخية الخاصة بمعنى المثقفين وطبيعة وجودهم الاجتماعى بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى علمى وموضوعى سبق تحديده بالتفصيل فى مطلع هذا البحث والذى يتخلص فى كون المثقفين هم دائما التعبير الهامشى عن كل الطبقات والمصالح المتعارضة والمتناقضة فى كل المجتمعات وعبر مراحل التاريخ المختلفة ، ونقاط الاتصال والتبادل فيما بينها ٠ حيث يشكلون غالبا ما يشبه بيت الخبرة المهنية الذى يقدم خدماته وخبراته ومشوراته لكل من يطلبها أو يقنعه بذلك أكثر من غيره بالاغراء أو الاضطرار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ولقد عبرت هذه الحقيقة التاريخية فى المراحل الأخيرة عن نفسها بوضوح بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة رغم قلتهم وتواضع خبراتهم ، ورغم أن الكثير منهم ما يزال عبثا يرفض هذه الحقيقة بشكل عام متشبثا بالأفكار الديماغوجية السابقة أو يتجاهلها بوعى تام ، ولحاجة ما فى نفس يعقوب ! ، انهم يرفضون الحقيقة التى يؤكدها جماعة من الباحثين السوفييت والمتمثلة فى كون فئة المثقفين تنحدر بصورة رئيسية من وسط الموظفين والوسط البرجوازى الصغير والاقطاع ، وان هذا المنشأ قد ساعد على أن تكون لديهم عقيدة ازدواجية لا تنفى الملامح الرجعية الملازمة لطبقة البرجوازية الصغيرة(٢٦) ٠

الاغتراب والحقيقة فى حياة المثقفين :

اذا كان الاغتراب ـ كما يقول ازفلد Azveld ـ هو الانفصال بين الأنا والآخر انفصال يؤدى الى العدى ، أو هو ذلك الاستلاب الذى يؤدى الى العبودية ، أو هو بعبارة أخرى فقدان الحرية وزوالها ، فان المشكلة لا تكمن فى كون الحقيقة التاريخية والاجتماعية القائمة تلك بالنسبة لمثقفى البلدان النامية والمتخلفة هى بالفعل هكذا وعلى نحو ما سبق عرضه وتحليله

---

(٢٦) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٣٩٢ ٠

وما تقتضيه طبيعة الواقع وظروف المرحلة بقدر ما أن المشكلة والخطورة تكمن أساسا فيما يفترضه الغالبية العظمى من هؤلاء المثقفين فى أذهانهم حتى الآن من مفاهيم مغايرة عن الواقع وعن أنفسهم أيضا ، أو مغتربة على الأصح عجزوا معها عن المواءمة بين حقيقتهم وواقعهم ، بين ما يعلنونه وما يطمحون اليه قولا وما تقتضيه ممارستهم العملية والاجتماعية فعلا ، بين ما يحاولون ادعاء الانتماء اليه شكلا وما هم مرتبطون به موضوعا الأمر الذى فقدوا معه اتزانهم وحريتهم(٢٧) .

فكون هؤلاء المثقفون يتعرضون اليوم لعملية اقتسام داخلى وخارجى أو يقومون - على الأصح - باعادة توزيع أنفسهم كأدوات وظيفية ووسائل تعبيرية عن مختلف الطبقات والمصالح السياسية والاقتصادية المتناقضة فى المجتمع على أساس من الانتماء الأصولى ، أو الاختيار السياسى والوظيفى ، فتلك ظاهرة طبيعية بل وصحية ، ويجب ألا يثير ذلك أى قلق أو خوف على حاضر ومستقبل التطلعات والأفكار الوطنية والتقدمية الجديدة ، أو فشلها فى مواجهة الايدولوجيات والأفكار البرجوازية والاقطاعية القديمة ، بل ان مرحلة ما قبل اعادة التوزيع هذا والتى لم تنتهى بعد ، كانت هى أكثر مدعاة للقلق والخوف ، ونقطة الضعف المميتة فى جسم المد الوطنى والتقدمى الحقيقى فى الشعوب النامية والمتخلفة ، حيث كان غياب المضمون الاجتماعى والطبقى الناضج بين المثقفين بصفة عامة والوطنيين والتقدميين منهم بصفة خاصة والجهل بالحقيقة العلمية والتاريخية لمعنى المثقف وطبيعة دوره لهو أشد حلقات السلسلة ضعفا فى تكوينهم حتى الآن ، وعامل الحسم فى تذبذبهم وتهديد جهودهم وفشلهم فى تحقيق قيادة الانتصار الناجز للأفكار الجديدة فى مقابل الأفكار القديمة وما آلوا اليه من تشرد وضياع محقق عجزوا معه حتى عن المحافظة على بعض المكاسب القومية والوطنية الباهتة التى كانت تظهر من وقت لآخر وما تلبث أن تختفى بسرعة أكثر(٢٨) .

وحالة الاغتراب هذه فى حياة المثقفين لم تكن دائما مجرد ظاهرة مرضية ولا ارادية فحسب ، ولكنها قد تمارس من قبل البعض كنوع من

---

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص٣٩٢ .

(٢٨) يمكن اعتبار تجربة عبدالناصر فى مصر ونهرو فى الهند ونكروما فى غانا وما شابه ذلك من الدلائل الواضحة على اخفاق هذا الخط الاصلاحى القومى وضياع المكاسب الشكلية التى كان قد حققها من وقت لآخر .

التصرف الانتهازى والبحث عن مصـالح جديدة أو الدفاع عن النفس وعن مصالح شخصية موجودة ٠

الفهم المغترب كتصرف انتهـازى :

اذا كان هـذا الخطأ العرضى الذى دفع المثقفون الوطنيون وشعوبهم ثمنه غاليا قد بدأ يتجـاوز نفسه بنفسه على مستوى الواقع العملى والمـادى المعاش على نحو ما سـبق ذكره ، الا أنه ما يزال مقلوبا على رأسـه تماما فى أذهان غالبية المثقفين عمـوما وفى مفاهيمهم النظرية والسطحية بوعى منهم أو بدونه ، فالـكثير منهم ممن يتربعون على قمة السـلطة أو يقفون على مقربة منها فى هذا البلد أو ذاك ، ويقومون بادوار كلاب الحراسة فى خدمة مصالح الامبريالية العالمية والاحتكارات الدولية فى الخارج داخل شعوبهم ، والمصالح البرجوازية والكمبرادورية الطفيلية التـابعة لها فى الداخل ، وبدوافع انتهازية خطيرة ترقى الى مستوى الخيانة الوطنية لسـيادة وحرية شعوبهم ، فانهم مع ذلك لا يترددون لحظة بوعى منهم أو بدونه عن الحديث والتغنى بأمجادهم القديمة أيام كانوا تلاميذ فى المدارس ، أو قادة نقابيين وسياسيين يوزعون المنشورات ، ويكتبون فى الصحف ، ويعقدون المهرجانات ويقودون المظاهرات فى الشوارع ، وهم يهتفون ضـد الاحتلال ويتغنون بمطالب الاستقلال السياسى ونشيد العلم الوطنى الذى حققوه فى النهاية ، وأهدوه الى شعوبهم التى يعيشون معها اليوم فى ظله وتحت لوائه « فى ثبات ونبات » وأنهم ما يزالون على نفس العهد وماضون فى نفس الطريق !!

وهنا تتأكد حقيقة أن النزعة الوطنية فى المجتمعات النامية ـ كما يقول بوتومورو ـ هى نتيجـة الصراع من أجل تحقيق الاسـتقلال عن الحكام الأجانب ٠٠٠ واذن فليس من الغريب فى شىء أن نجد فى معظم المجتمعات النامية حزبا واحدا قاد بنجاح حركة الاستقلال ، ثم جعل من نفسه صفوة حاكمة تبرر قوتها بالنظر الى أمجادها الماضية والوعود التى تقدمها لبنـاء أمة حديثة(٣٩) ٠

كما يعملون فى نفس الوقت وبلا كلل على اقناع شعوبهم ـ أو تضليلها على الأصح ـ بالحديث عن عظمة ما أنجزوه من تحرر سياسى مزيف وما حققوه من انجازات اقتصادية واجتماعية وهمية لصالحها كل يوم بلا خجل ، وأنه

---

(٣٩) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ١١٦ ٠

ما عاد هناك من عمل وطني يعمل ولا مهمة حضارية أو اجتماعية أو سياسية يمكن المطالبة بها ، غير التصـــدى للأفكار المستوردة ، ومحـــاربة الخطر الشيوعى ، والتحلى بالأخلاق الحميدة والصبر عند المكاره والقناعة بما قسم ، والله يرزق من يشاء بغير حساب !!

ذلك أن الحادث - كما يقول الدكتـور الجوهرى - فى الغالب وكما هو متوقع ألا يتحول هؤلاء الأفراد الى مدافعين عن قضية التقـــدم والتنمية الاجتماعية . ذلك أن انتماءهم الأصلى ثم مجيئم من بيئات مستقرة ماديا ، وكذلك تبعيتهم للســلطة السياسية التقـــليدية التى لا تسعى الى تشجيع الجديد ، كل ذلك يقلل من حماسهم للقضايا العامة ، ولا يجعل من عملهم الجديد وسيلة لخدمة المجتمع الكبير ، ولذلك تقتصر حياتهم على الاندفاع نحو الاستهلاك باسراف ، الذى تيسره لهم دخولهم العالية من الأراضى الزراعية أو المضاربات وأعمـــال السمسرة ، أو الاقتصـــار على المشاركة الروتينية المحافظة فى النشاط السياسى العام « دون برنامج محدد ، أو دون مطامح ثورية ان شئنا الدقة » وقد نجدهم يقتصرون على ادارة المشروعات الصناعية أو التجـارية الجـــديدة ، ولو ادارة اسمية « من خلفهم جيش من الخبراء المحليين أو الأجانب »(٣٠) .

وهـــذا هو طراز الفهم الطبقى الجـــديد لمثقفى البرجوازية الكبيرة والكمبرادور المحلى والدولى الذين يديرون مصالحها من قمة السلطة والذى يمارسونه بوعى كامل فى قرارة نفوسهم سرا ، ويؤطرونه علنـا بكل تلك التصرفات الانتهازية الخطيرة ، والأكاذيب والاشـاعات المضللة الفاسدة ، والتى بالرغم من كل ما أحدثته من مضاعفات سياسية واقتصادية واجتماعية لبعض الوقت ، الا أنها لم تعد تقوى على الحيلولة دون كشف حقيقة الاستقلال الكسيح ، وتعميق مظاهر الاســـتغلال والتبعية الاقتصـــادية والسياسية فى الخارج ، وتكريس الأوضاع المتخلفة فى الداخل .

كما أنها لم تعـــد تقوى أمام متغيرات الظروف والتطور التاريخى على اخفاء ما تسببت فيه وما تزال تتسبب فيه أبواقهـــا المضللة والكاذبة من افساد حقيقى للرأى العام والذوق والثقافة الوطنية وبديهيات العقل والمنطق

---

(٣٠) د. محمد الجوهرى : علم الاجتمـــاع وقضـــايا التنمية فى العـــالم الثـــالث ، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ .

والتى يعون هم حقيقة زيفها قبل غيرهم ، الا أنهم لم يستغنوا عنها بعد كتصرف انتهازى ضحل من أجل خدمة مصالحهم السياسية والطبقية الحقيقية المرتبطة بحالة التخلف والتبعية · فهناك عامل - كما يقول بوتومورو أيضا - يجعل من النزعة الوطنية فى حد ذاتها مذهبا غامضا بالنسبة للحكام السياسيين للدول النامية هو أنها قد تنطوى على نظرة تراجعية وقد تسعى الى احياء النظم والصفوات التقليدية ··· والمثال الكلاسيكى على هذا النمط من الأحداث هو احياء الهندوسية فى الهند (الأعنف) تلك الحركة التى طورها واستخدمها غاندى فى اقامة حركة جماهيرية لمعارضة الحكم البريطانى · ونستطيع أن نجد أمثلة أخرى فى الأقطار العربية ، وباكستان . بل وحتى فى بعض أجزاء افريقيا(٣١) ·

ويمكننا أن ننظر الى حركة الثورة الايرانية باعتبارها تقدم أحدث دليل حى على هذا النمط من النزوع الوطنى التراجعى ، وان كان الشىء الذى تتميز به عما ذكره بوتومورو هو كونها لم تحارب محتلا أجنبيا مباشرا ولكنها أسقطت حكم فرد دكتاتور مستبد وعميل للغرب بمضمون وأفق سياسى ووطنى يشكل خطوة متقدمة أكثر بالنسبة لما قبله وواقعه الراهن ، الا أن الافق المستقبلى ما يزال محفوف بالمخاطر نتيجة لوجود هذا النمط من النزوع الوطنى الغامض الذى تحدث عنه بوتومورو والذى هو فى طريقه لأحكام قبضته على السلطة فى ايران ما لم تجد تطورات وتحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية جذرية ·

وهكذا تتأكد حقيقة أن هذا الطراز من مثقفى الاقطاع والبرجوازية والذى بدأ يمارس مهمته الطبيعية من خلال السلطة أو من خارجها لم يكن حرصه على الاستمرار فى الصاق المفاهيم المغتربة بنفسه للوطنية والحرية والديمقراطية والثقافة والدين والشيوعية ·· الخ ، والاصرار على تكريسها فى الواقع بطرق مشوهة ومنحرفة ، لم يكن كل ذلك نابع عن اغتراب حقيقى فى نفوسهم أو جهل بحقيقة وضعهم الطبقى والثقافى الجديد ، بقدر ما أنه قد أصبح تصرفا انتهازيا خطيرا وواعيا دفاعا عن مصالح طبقية واجتماعية معينة ، يجب الكشف عنها وتعريتها بلا هوادة(٣١)

---

(٣١) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، ص ١١٦ و ١١٧ ·

(٣١ مكرر) راجع بصفة عامة لينين : كتاب « ما العمل » - دار التقدم موسكو ·

(ب) الفهم المغترب كجزء من البقاء والدفاع عن النفس :

وهناك طراز آخر من الفهم المغترب ما يـزال يعشعش بين طراز آخر من المثقفين فى البلدان النامية والمتخلفة ، خصوصا ما يتعـلق منهم بذلك النوع البرجوازى الصغير المنتشر بين صغار وكبار الموظفين الاداريين والفنيين فى أجهزة السلطة والمؤسسات والوكالات التجارية المحلية والأجنبية الخاصة والمختلطة ، والتى بالرغم من أنهـا قد أصبحت هى التعبير المـادى والمعنوى لوجودهم ، كما صاروا هم كذلك يشكلون العمود الفقرى لوجودها وضمان استمرارها أيضا ، الا أنهم من النـــاحية الشكلية وبروح استلابية مغتربة ينكرون على أنفسهم ذلك ، بل ويصرون بدافع الحفاظ على توازنهم النفسى المنهار بين ما يعلنونه شكلا ، ويمارسونه فعـلا وموضوعا ، يصرون على أنهم كانوا وما يزالوا يشكلون بأفكارهم ومفاهيمهم الخاصة المدخل الوحيد لمبادىء النضال الوطنى والتقدمى بكل مقاييسه ومضامينه المختلفة ، من أجل تغيير الواقع الراهن نحو الأفضل ، وأنهم وحدهم القادرون على تحديد مهامه وادارة شئونه ، بل وتحقيق أهدافه النهـــائية فى يوم ما وبطريقة ما ، وتقديمها للواقع الاقتصادى والاجتماعى المتخلف كما تقدم الهدايا الثمينة فى الاحتفالات المهيبة .

ولذلك لا ندهش — كما يقول الدكتور الجوهرى — عندما نجد أبنـاء جماعات الصفوة الجديدة يستشعرون فى قرارة أنفسهم التفوق على سـائر فئات المجتمع ، وهو شعور باعتقادهم بأنهم أقدر على رؤية مستقبل الجماهير العريضة وتقدير مصالحها من خلال ما حصلوه من تعليم عصرى وما اكتسبوه من خبرة ، ولذلك يسعون الى التحلل من أداء الوظائف الجزئية(٣٢) .

ولقد كان لينين ثاقب النظرة وشديد الحساسية لهذا الطراز من المثقفين وكان يصفهم بالميوعة ويعتبر أن مجرد وقوفهم على الحياد ضمن علاقة حسن جوار بالنسبة لقضية النضال الثورى يكفى جدا ، أما اذا قبلوا بتنفيذ بعض المهام الثورية المحددة فان ذلك يعد عملا عظيما ، كما أن لينين لم يكن يخفى أبدا احتياج طبقـــات الشـغيلة والمنتجين لأفكار ومعـــارف هؤلاء المثقفين فى نضالهم ، الا أنه يؤكد بثقة أن السند المكين للنضال يكمن فى جماهير هذه الطبقات وليس فى هذا الطراز من صفوات المثقفين ، ملخصا كل ذلك بقوله مخاطبا لهم : ان ســـندنا مكين ، ونحن لم يخـــامرنا الشـك يوما

---

(٣٢) د. محمد الجوهرى : علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العالم الثالث ، ص٢٦٠ .

فى ميوعتكم ورخاوتكم ، أما أننا بحاجة اليكم فهذا ما لا ننكره لأنكم كنتم العنصر المثقف الوحيد(٣٣) ٠

ومن واقع هذا الفهم البرجوازى المشبع بالمثالية المسرفة يستمد هؤلاء المثقفون شرعية استمرار تسلطهم ووصايتهم على التنظيمات السياسية الوطنية والنقابية والجماهيرية المختلفة ، ويشكلون القناة شبه الوحيدة لصياغة وتوصيل المفاهيم والأفكار النضالية والتقدمية الى كل تلك الطبقات والمؤسسات الواقعة فى أسفل السلم الاجتماعى ، من عمال وفلاحين وجنود وتجار صغار وطلاب ٠٠ الخ ، بعد أن يصبغوا عليها طبيعة شخصيتهم ومزاجهم الخاص ٠ يساعدهم فى ذلك طبيعة الواقع المتخلف سياسيا وثقافيا لتلك الطبقات والمؤسسات الجماهيرية والذى ما يزال غضا من ناحية ، والاستفادة المشروعة من مبدأ التقادم فى العمل الوطنى الذى اكتسبوه فى هذا الشأن بمرور الوقت من ناحية أخرى ، اضافة الى وجود رغبة خفية ولا واعية على الأقل فى الحرص على هذا الوضع والدفاع عنه كجزء من الحرص على بقاء بعضهم ممن تجاوزتهم الظروف أو تخلفوا عنها على الأصح ، وصار التمسك بهذه الأنماط والمفاهيم المغتربة والخاطئة فى العمل السياسى والوطنى ورؤية الواقع نفسه جزءا من التمسك بوجودهم نفسه والدفاع عنه ورغبتهم فى التغاضى عن حقيقة واقعهم الى هذا الحد أو ذاك ٠

وهكذا تتأكد الحقيقة الثانية بالنسبة لهذا الطراز من المثقفين البرجوازيين الصغار بأن ميلهم الى الفهم المغترب للقضايا السياسية والاجتماعية والوطنية ليس فهما واعيا أو تصرفا انتهازيا ١٠٠٪ كما هو الحال بالنسبة لمن قبلهم من مثقفى الطبقات الاقطاعية والبرجوازية الكبيرة والرجعية ، بقدر ما أنه نابع من أصول تربية سياسية وفكرية قديمة خاطئة من ناحية ، ويجد البعض منهم - حتى بحكم تقدم العمر والمراهقة الجديدة - صعوبة بالغة فى القدرة على تجاوزها بسهولة ومجاراة المتغيرات التاريخية الجديدة ، كما يرفضون - بحكم تربيتهم أيضا - الاعتراف بذلك ، ويميلون بدلا منه الى التمسك بمواقعهم التى وقف بهم الزمن عندها لسبب أو لآخر ، كجزء من الدفاع عن بقائهم نفسه الذى صار اغترابا فى الأساس ، ومحاولة جعل كل شىء يدور حول هذا الموقف المغترب والمتذبذب والمريض وغير المستقر ٠

---

(٣٣) لينين : فى الثقافة والثورة الثقافية ، دار التقدم موسكو ، ص ٣٢ ٠

انهم باختصار - كما يقول عدد من الباحثين السوفييت - لم يعد لديهم استعدادا كافيا للتجاوب مع ارادة الجماهير التى تزداد وضوحا وتهدف الى بناء الاشتراكية فى الوقت الراهن وفى مرحلة الانعطاف الاجتماعى الشديد الذى يجرى فى عدد من البلدان المتحررة فى آسيا وافريقيا ، وعلى هؤلاء المثقفين أن يختاروا اما الوقوف مع الشعب فى سبيل الاشتراكية واما مناهضة المستقبل الاشتراكى أى تفضيل الطريق الرأسمالى فى التطور(٣٤) ٠

(ج) الحقيقة بدلا من الاغتراب :

وهناك طراز ثالث جديد ومتطور من الفهم السائد بين مثقفى البلدان النامية والمتخلفة ، أو على الأصح طرازا جديدا من المثقفين الاشتراكيين التقدميين ، ترجع نشأته وتكوينه الى مراحل لاحقة جدا بالنسبة لمن قبلهم ، بل ربما أنه ما يزال فى مرحلة التكوين من خلال بعدين اجتماعيين رئيسيين ، الأول من خلال تحول جذرى حاسم فى حياة البعض من أولئك الذين أضنتهم حياة الاغتراب والصراع النفسى والتهميش الاجتماعى والفكرى بين ما يغترضونه فى نفوسهم ويطمحون اليه ، وما يعيشونه ويمارسونه فى واقعهم العملى ، وبالذات مجموعة الطراز الوسطى أو البرجوازى الصغير الذين سبقت الاشارة اليهم فى النقطة السابقة ، حيث يتجه البعض منهم بحزم من أجل الخلاص من وضعهم الاغترابى المزق بحثا عن الواقع والحقيقة التى يوفقون فيها بين الشكل والمضمون فى حياتهم الخاصة والعامة ٠

وذلك اما صعودا الى أعلى بمفاهيمهم البرجوازية الصغيرة واللبرالية والوطنية نحو ذلك الطراز الأول من الفهم الذى أصبح واضحا لدى مثقفى الطبقات الاقطاعية واالبرجوازية الكبيرة والكمبرادور والقوى الرجعية بعامة فى المجتمع، ويوفقون بذلك بين الشكل والمضمونفى حياتهم، أو المفاهيم النظرية والممارسات العملية ، شأنهم فى ذلك شأن سابقيهم ممن سبقت اليهم الاشارة ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ومواقفهم وممارساتهم جرأة فى هذا الاتجاه المضاد ، ويحصلون على امتيازات ومكاسب أكثر فى ظل الأوضاع الراهنة ٠

---

(٣٤) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ ٠

واما هبوطا الى أسفل حيث يغادرون واقعهم المادى والموضوعى القائم بجرأة وجدية أيضا بحثا عن واقع اجتماعى وموضوعى آخر يتوافق ونوع طموحاتهم ومفاهيمهم اللبرالية والوطنية فى نطاق الفئات والطبقات الشعبية المقهورة فى المجتمع ، من عمال وفلاحين والمنظمات الجماهيرية والنقابية المختلفة ، ويوفقون بذلك أيضا بين مفاهيمهم النظرية وممارساتهم العملية والموضوعية ، وتزداد مفاهيمهم عمقا ونضجا ، وممارساتهم أكثر فاعلية وتأثيرا فى الاتجاه الوطنى والتقدمى الموجب . مكونين بذلك البعد الأول لما نسميه هنا بالطراز الثالث والجديد من مثقفى البلدان النامية والمتخلفة . أما البعد الرئيسى الثانى لهذا الطراز الجديد من المثقفين الوطنيين فهو لايهبط من أعلى بقدر ما هو آخذ فى التبلور والنشوء من أسفل ومن أوساط الطبقات الشعبية والفئات الجماهيرية نفسها ومؤسساتها المختلفة من عمال وفلاحين وصغار الموظفين والجنود والطلبة ، وغيرهم من قوى التحالف الوطنى فى المجتمع .

خصوصا بعد أن بدأت هذه الطبقات والمؤسسات الجماهيرية تمسك بزمام المبادرة المباشرة فى طرح مطالبها وطموحاتها بنفسها فى كثير من الحالات فى مواجهة القوى المعادية فى الداخل والخارج ، ولم يعد موقفها هامشى كما جرت العادة منذ ما قبل الاستقلال وبعده بقليل ، أو مجرد صدى وتلبية لنداءات العناصر السياسية الوطنية من وقت لآخر وعلى ضوء تقديراتها الذاتية .

حيث تغيرت مقاييس الوعى فى أوساط هذه الطبقات والفئات نحو الأفضل ، وبالذات طبقة الفلاحين التى تكون الغالبية العظمى من سكان هذه المجتمعات التى بدأت تدخل بثقلها كطرف مباشر فى سير الأحداث السياسية والاجتماعية بصورة مباشرة وغير مباشرة(٣٥) . حيث بدأ يظهر بين أفراد هذه الطبقة وغيرها عناصر تتمتع بوعى طبقى حقيقى ، مكونين مع تلك العناصر الهابطة التى سبقت الاشارة اليها نمطا جديدا من المثقفين الوطنيين هو بمثابة الحليف الحقيقى للنضال الطبقى التقدمى ومضامينه التاريخية والعلمية والتقدمية الجديدة فى مواجهة كل البناءات والمؤسسات الطبقية والاجتماعية القومية .

---

(٣٥) يمكن اعتبار الثورة الايرانية والحركة الثورية فى نيكاراجوا وبوليفيا ، هى اولى البوادر الجديدة . لحركة الشعب المباشرة ضد أعدائه الطبقيين فى الداخل على طريق التحرر الاقتصادى والاجتماعى الشامل .

ولقد أشار بوتومورو الى أهمية الأصول الطبقية والاجتماعية فى تكوين المثقفين الاشتراكيين والثوريين داخل الطبقات الكادحة من جهة ، والى نقاء وحياد وعالمية الأفكار التقدمية والاشتراكية كعوامل جذب للمثقفين الاشتراكيين والتقدميين أيضا من خارج الطبقات الكادحة وخصائص حيوية للحياة الفكرية ذاتها ، اذ يقول : ان انجذاب المثقفين نحو الحركة الاشتراكية راجع الى أنهم يجدون فيها النقاء والحيادية والعالمية وهى خصائص تعد حيوية للحياة الفكرية ذاتها • وثمة عامل آخر يحتل نفس الأهمية - وربما يفوق أهمية ما سبق - وهو الأصول الاجتماعية للمثقفين(٣٦) •

(٣٦) بوتومورو : الصفوة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ٨٩ •

الفصل الثالث

أنماط التشوهات الاقتصادية والثقافية فى البلدان النامية

فى كل الصفحات السابقة - تقريبا - من هذا البحث تم تحليل الكثير من مظاهر العلاقات الخاصة بفئة المثقفين وانتماءاتهم الطبقية وما تعرضت له من متغيرات سياسية واجتماعية حديثة ، وبدأ تحليلنا لكل ذلك بصورة تميل الى الرتابة شبه الآلية ، والتى توحى بالتعميم المطلق على معظم المجتمعات النامية والمتخلفة موضع الدراسة ٠

فهل نستطيع أن نحكم بأن الأحداث التاريخية المعاصرة فى كل هذه المجتمعات قد جرت على هـذا النحو وما تزال وبلا مميزات أو خصوصيات جزئية أو استثناءات على الأقل ؟ سـواء بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم من الفئات والطبقات الاجتماعية من مجتمع لآخر أو من قارة لاخرى ؟؟

هذا ما لا نميل الى الأخذ به ، ونرغب فى تحليله من خلال صفحات هـذا الفصل ٠ واذا كان لابد وأن نتذكر دائما بأن كل الأبعاد النظرية والتحليلية الأكثر شمولا وعمومية والتى سبق الأخذ بها فى مجمل التحليلات الاجتماعية والطبقية السابقة بالنسبة لفئة المثقفين أو غيرهم ، هى القاعدة العلمية والموضوعية الأكثر صدقا ، وتطابقا مع ايقاعات التطور التاريخى والجدلى فى الطبيعة والمجتمع ، الا أن حالات نمطية واستثنائية معينة وربما عرضية مؤقتة ، تستطيع أن تفرض نفسها من وقت لآخر وتؤثر تأثيرا ملحوظا وعميقا على الايقاع الصحيح للتطور التاريخى والجدلى ، وتحد من فاعليته الايجابية ، وهى عادة ما تبدو أشبه ما تكون بحالات التشوه المرضى الذى يصيب الجسم الصحيح فيفسد شكله ونموه الطبيعى ويحد من حركته وعطائه المادى والمعنوى ٠

فلقد لاحظنا فى كل الصفحات السابقة بأن كل الظروف الخاصة والعامة التى أدت الى كيفية نشأة وتكون المثقفين فى البلاد النامية وطبيعة انتماءاتهم وعلاقاتهم الطبقية ، ودورهم السياسى والاجتماعى ، هو ضرب

من حالات التشوه المرضى هذه على مستوى البلدان النامية والمتخلفة بصفة عامة فى ظل علاقات الغزو والسيطرة الاستعمارية ٠

وسنقوم فى هذا الفصل بتحليل أكثر عمقا لنماذج وأنماط محددة من هذا التشوه ، قد يختلف شكلها وفاعليتها ومضمونها من مجتمع لآخر ، أو من قارة لأخرى على امتداد هذه المجتمعا نفسها ، فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، وصولا الى تحديد انسمات والميزات المختلفة لأشكال التشوه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أصاب هذه المجتمعات فى ظل الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة ، والتبعية السياسية والاقتصادية الحديثة ، من مجتمع لآخر أو من قارة لأخرى على الأقل ، والتى أسفرت فى مجملها عن تشوهات مختلفة فى البناء الاقتصادى والسياسى والاجتماعى (الطبقى) بما فى ذلك بناء فئة المثقفين التى تشكل النقطة الأساسية لموضوع هذا البحث ٠

التشوهات الاقتصادية :

اذا ما تذكرنا بأن مربط الفرس فى حركة الغزو والسيطرة الاستعمارية القديمة والامبريالية الجديدة هو دائما الابتزاز والنهب الاقتصادى للشعوب النامية والمتخلفة ، فاننا سوف لن نقوى على الامساك بالمدخل الصحيح لتفسير دلالة الافساد والتخريب والتشويه الرهيب الذى ألحقته هذه الحركة باقتصاديات هذه الشعوب منذ مطلع القرن السابع عشر وحتى اليوم فحسب ، بل اننا سوف نمسك بالمدخل الصحيح لكل دلالات التشويه والتخريب والافساد الاجتماعى والسياسى والثقافى الذى كان ولا يزال مشروطا ولازما لاكمال عملية التشويه والتخريب والنهب الاقتصادى ، وصولا الى تكريس كل دلالات التخلف التى تعانى منها هذه المجتمعات فى الوقت الحاضر ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ، ذلك أن التخلف - كما يقول رودولفو استافنهاغن - هو كما نعرفه الآن نتيجة انغراس الرأسمالية فى المجتمعات غير الصناعية وهو يبدو سمة أساسية من سمات النظام الرأسمالى(١) ٠ ويضيف قوله : بأن البنى التقليدية ليست فى حد ذاتها علامة على التخلف ، فهذه البنى تميل الى أن تصير متخلفة فقط فى حال اندراجها فى النظام الرأسمالى الجديد(٢) ٠

---

(١) رودولفو استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦ ٠
(٢) المرجع السابق ص ٧ ٠

وحتى لا نضطر الى الدخول فى تفاصيل موضوع هذه الحقيقة التى أصبحت شبه بديهية عوضا عن كونها لا تشكل جوهر ما نقصده من هـذا البحث ، فاننا نستطيع أن نجعل هـذه التشوهات الاقتصادية فى نقاط محددة ، ونتبين مدى خطورتها وما وصلت اليه من نتائج سلبية مخيفة ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن عملية غرس وتكريس هذا التشويه والتخريب قد بدأ منذ ما يقرب من ثلاثة قرون كامنة وحتى الآن ، حيث يمكن تحديد أبرز مظاهر هذا التشوه وأكثرها شيوعا من الناحية الاقتصادية بصفة عامة فى النقاط الآتية :

(أ) تدمير الاقتصاد القومى المنتج والمستقل الذى كان سائدا قبل الغزو ويحقق الاكتفاء الذاتى فى الداخل ، مع تحقيق فوائض مصنعة وغير مصنعة للتصدير الى الخارج ، وتحويله الى اقتصاد استيراد سلعى مستهلك غير مستقل وتابع للخارج ١٠٠٪ فى كثير من الأحيان(٣) ٠

(ب) تحويل استثمار مصادر الثروة القومية والطبيعية فى هـذه المجتمعات من حالة تكامل مرتبط ومتجه الى الداخل الى استثمار متخصص بصفة مطلقة ووحيدة الجانب تقريبا ومرتبط نهائيا بمناطق التصنيع فى الخارج ، بالنسبة لكل مجتمع على حدة تقريبا ٠ فمصر تنتج القطن لمصانع الغزل والنسيج الانجليزية بمانشستر ، والجزائر تنتج الكروم لمصانع النبيذ والمشروبات الروحية بفرنسا ، والبرازيل تنتج البن ، وبلدان شرق آسيا وجنوبها المطاط والشاى ، وحتى الوقت الحاضر يمثل الكاكاو الانتاج الرئيسى المعد للتصدير فى غانا ونيجيريا ، وتوجو والكمرون ، وكذلك هى الحال بالنسبة للمطاط فى ليبيريا ، وفسدق العبيد فى السنغال ، والبن فى غينيا وساحل العاج وكينيا وأوغندا(٤) وهكذا ٠

ثم القيام بعملية ابتزاز ناتج هذه الاستثمارات فى شكل مواد خام بأثمان بخسة وشبه مجانية ٠

(ج) الحيلولة دون احداث صناعات حديثة بعد تدمير كل أشكال الصناعات التقليدية ، والاكتفاء بتحويل كل مجتمع على حدة الى مجرد سوق مفتوحة للسلع الاستهلاكية المصنعة فى مناطق « المتروبول » فى أوربا

---

(٣) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، ص ٤٤ ٠
(٤) ر٠ استفنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١١١ ٠

كمصدر وحيد وملزم بالضرورة للحصول على مثل هذه السلع الاستهلاكية التى أصبحت ضرورة ، بما فى ذلك المواد الغـــذائية بأثمان باهظة · فبعد أن كانت أوربا بصفة عامة وانجـــلترا بصفة خاصة تستورد من التوابل والمنسوجات من الهند أثناء القرن الثامن عشر وما قبله فانها - أى انجلترا - قد استطاعت - كما يقول بول بايروك - أن تجبر الهنود منذ العام ١٨١٣ على شراء المنسوجات القطنية التى كانت تشحن من ميناء « ليفربول » وتصنع فى مصانع « لانكشستر » بانجلترا حيث كان الأطفال يشتغلون ١٦ ساعة فى اليوم ، وحيث بلغ ما تحصل عليه بريطانيا من قيمة هـــذه الصادرات عام ١٨٥٦ عشرة ملايين جنيه استرلينى ، والذى لم يكن يتجاوز خلال القرن الثامن عشر المليون جنيه استرلينى ، وقفز هذا الرقم عام ١٨٦٧ الى عشرين مليون وبلغ عشية الحرب العالمية الأولى سبعين مليونا بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ التى اختزلت المسافة بين لندن وبومباى بنسبة ٤٠٪ وما لبث أن أدى كل ذلك الى زوال كامل تقريبـــا للصناعة الحرفية المحـــلية وعرقل بشدة نشوء صناعة حديثة(٥) ·

حيث تحولت بدلا من ذلك أســـواق الهند وغيرهـــا من المجتمعات الآسيوية والافريقية الى مجرد أماكن لتجميع المواد الخام المختلفة التى كانت وما تزال تبتزها السلطات والشركات الاستعمارية بلا مقابل فى البداية ، أو بأثمـــان بخسة فى الوقت الحـــاضر ، واللازمة لمختلف الصناعات الآلية الحديثة فى مراكز « المتروبول » فى أوربا ·

فلقد أبدى الرأسماليون دائمـــا - كما يقول استافنهاغن - عدائهم لاقامة صناعات محلية تتيح المجال لتحويل المواد الأولية حيث هى موجودة ، فتساهم فى اثراء البلاد ، وكان من شـــأن هذه المنجزات فيما لو تحققت أن تؤدى الى ضرب احتكارات الشركات التجارية(٦) ·

(د) اقامة العديد من المرافق الاقتصادية من موانىء ومطارات وسكك حديدية بالذات وفق تخطيط لا يخـــدم مطلقـــا نرابط المجتمع اقتصـــاديا والاجتماعيا فى الداخل ، بقـــدر ما يسهل فى الأساس عمـــلية الربط بين مصادر المواد الخام فى المناجم والمزارع وموانىء تصديرها من جهة ومراكز

---

(٥) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١٠٧ ·

(٦) ر· استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦٣ ·

توزيع السلع التجارية المستوردة من جهة أخرى . ان هذه المرافق قد بنيت - كما يقول بايروك - بشكل يشبه القمع المتجه الى الخارج ، وليس الشبكة التى يبدأ مركزها وينتهى فى اتجاه الداخل(٧) . ولقد أشار ماركس الى هذه الحقيقة فى عام ١٨٥٣ قائلا : اننى أعرف جيدا أن الرأسمالية الانجليزية لا ترغب فى أن تهب الهنود خطوطا حديدية الا لكى تحصل على المواد الأولية التى تحتاجها مصانعها(٨) .

التشوهات الطبقية والثقافية :

ولكى تؤدى عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى كل النتائج المرجوة منها فى تكريس السيطرة والاستغلال الاقتصادى ، فلقد لزم اجراء عدة أشكال مختلفة من التشويه والتخريب الاجتماعى والثقافى والسياسى والطبقى الموازى بالضرورة لعمليات التخريب والتشويه الاقتصادى بطريقة أكثر خطورة ووحشية ، حيث يمكن رصد أبرز مظاهر هذه التشوهات الاجتماعية والثقافية باختصار فى النقاط الآتية :

(أ) مسخ الوجود القومى والحضارى لكثير من الشعوب والمجتمعات عن طريق الحرب والابادة الجسدية ، والقيام بعملية تستطيع مجتمعات « كولونيالية » جديدة قادمة من الخارج على أنقاض بقايا المجتمعات القديمة التى تحولت الى أقليات اجتماعية وقومية محاصرة فى مناطق جغرافية وسكنية محددة سلفا ، وفى ظل ظروف معيشية لا انسانية . الأمر الذى حدث فعلا بالنسبة لمعظم المجتمعات الحضرية الهندية القديمة فى أمريكا الشمالية والجنوبية على السواء ، واستراليا ومناطق الاستيطان العنصرى فى جنوب افريقيا والصهيونى فى الشرق الأوسط .

(ب) افساد الأوضاع الثقافية والفكرية والحضارية أيضا للمجتمعات الأصلية ، والقيام بعملية حجبها وتهميشها بكل الوسائل ، وفرض أنماط محددة ومخططة سلفا من الثقافة والمدنية الأوربية التى أتابها الغزاة ، بما يحقق الايقاع المطلوب لعمليات الافساد والابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية ، خصوصا فيما يتعلق باللغة والتشريع وعلاقات الملكية ، وهو الأمر الذى ينطبق على ما حدث لمعظم مجتمعات القارة الافريقية التى

---

(٧) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١١٣ .
(٨) المرجع السابق ، ص ١١٢ .

صارت تعرف اليوم بالناطقة بالفرنسية أو الانجليزية أو غيرها ، اذا ما استثنينا الدول العربية بشمال وشرق القارة التى أفلتت من هذه القضية الى حد ما ٠

(ج) القيام بعملية افساد وتعديل نمط الاستهلاك الاقتصادى للطبقات الاقطاعية التقليدية المسيطرة قبل الغزو فى معظم هذه المجتمعات بصفة عامة وهى مجتمعات القارة الآسيوية بالذات ، وتحويله من انفاق محدود للقوت متجه الى الداخل مائة فى المائة (١٠٠٪) الى انفاق للترف متجه الى الخارج ١٠٠٪ تقريبا (الحصول على السلع الكمالية والاستهلاكية المصنعة فى الغرب) دون أن يغير شىء من أوضاعها السياسية والاجتماعية والعشائرية أو نمط تفكيرها الايدلوجى والفكرى المتخلف ، بقدر ما زاد من تضخيم هذه الأوضاع وباركها ودافع عنها ٠ بعد أن صارت أكثر تخلفا من ذى قبل ٠ فهذه البنى التقليدية ـ كما يقول استافنهاغن ـ قد لا تكون فى حد ذاتها علامة على التخلف بالضرورة بقدر ما أنها تميل الى أن تصير متخلفة فقط فى حال اندراجها فى النظام الرأسمالى الجديد ، وأكثر من ذلك أن الرأسمالية القادمة من الخارج تعززها وتقويها ، وهذه حالة بعض الطوائف فى الهند ، والاقطاعيات فى افريقيا واندونيسيا والأنظمة السياسية والاستبدادية فى أمريكا اللاتينية ، والنزعات القبلية التى تثيرها الدول الكبرى الاستعمارية فى افريقيا(٩) ٠

(د) التركيز الشديد على خلق طبقة أو شريحة جديدة من البرجوازيين والوسطاء التجاريين والكمبرادوريين المحليين ، للقيام بمساعدة المستثمرين والمضاربين الدوليين فى مراكز المتروبول على توزيع بضائعهم وحتى أرباحهم الطائلة من جهة ، والحصول على ما قد يحتاجونه من المنتجات الزراعية والمواد الخام اللازمة لتلك الصناعات المركزة فى الخارج ، مقابل الحصول على مداخيل طفيلية من عمليات الوساطة والسمسرة هذه التى يتسع نطاقها يوما بعد يوم ، خصوصا بعد الغياب المباشر للسيطرة الأجنبية وفى ظل الاستقلال السياسى المزيف فى الوقت الحاضر ٠

(هـ) القيام بعملية تقسيم ادارى وجغرافى مشوهة لمواطن هذه المجتمعات ، لا وفقا لطبيعة تكوينها القومى وبما يحافظ على وحدتها الوطنية

---

(٩) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٧ ٠

بل بما يضمن اضعاف وتمزيق هذه الوحدة نفسها ، ويسهل مهمة الادارة الاستعمارية ويحقق أغراضها السياسية والاقتصادية · وهو الأمر الذى أدى الى افتقاد كثير من هذه المجتمعات لوحدتها الوطنية والقومية ، وأورثها الكثير من المشاكل السياسية والاقتصادية الحادة بعد الاستقلال الذى كان يعطى لها على أساس ذلك التقسيم الجغرافى والسياسى المشوه · والوطن العربى الذى تم تقسيمه الى عدة مستعمرات قبل الاستقلال وتحولت هذه المستعمرات الى دويلات بعد الاستقلال وما تعانيه هذه الأمة من التمزق السياسى وسوء التكامل الاقتصادى والاجتماعى حتى اليوم من جراء ذلك والى أجل غير مسمى ، كل ذلك يقدم أفضل دليل على ذلك لأكثر من مثل فى أكثر من منطقه من العالم (باكستان الشرقية والغربية ـ كوريا الشمالية والجنوبية ـ جنوب السودان ـ شمال العراق ـ فيتنام الشماليه والجنوبية ـ الصين الشعبية والوطنية ·· الخ) ·

نتائج التشوه فى كل من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية :

ومن خلال كل عمليات التشويه والتخريب الاقتصادى والاجتماعى هذه وبفعلها يمكننا أن نستخلص عدة نتائج مباشرة وغير مباشرة تمخضت جميعها عن هذا التشويه والتخريب الذى طال به الزمن ، فالى جانب النتائج المباشرة التى فقدت بموجبها العديد من المجتمعات وجودها القومى والحضارى والثقافى نفسه على نحو ما سبق فان نتائج أخرى غير مباشرة وان كانت أقل خطورة نسبيا لهذا التشوه قد شملت هذه المجتمعات نفسها وغيرها من المجتمعات التى صارت اليوم تعرف بالمجتمعات النامية والمتخلفة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتى سنحاول أن نستخلص هذه النتائج فى كل منطقة على حدة نظرا لكل المقدمات والنتائج التى تتميز بها كل منطقة عن المنطقة الأخرى ·

فى آسيا وشرق وشمال افريقيا :

لقد كان نجاح الادارة الاستعمارية فى افساد وتعديل نمط المعيشة والاستهلاك الاقتصادى للطبقات والأرستقراطيات الاقطاعية فى المجتمعات الآسيوية من انفاق للقوت متجه للداخل الى انفاق للترف متجه للخارج ، دون أى تغيير يذكر فى أوضاعها السياسية والاجتماعية ، هو من الأمور التى أفقدت هذه الطبقات أهم خواصها التاريخية ، وهى الزهد النسبى فى الانفاق والاعتماد على المصادر الذاتية فى الداخل وعدم الارتباط بالخارج ، أو الخوف منه عادة ، والتى يمكن أن توصف بأنها خواص ايجابية بشكل ما ، فى الوقت

الذى احتفظت بكل خواصها السلبية ، كطبقات مستغلة وذات مصالح ومفاهيم رجعية شديدة التخلف ، الأمر الذى حقق ارتباطها الاقتصادى بالخارج من جهة وكرس أوضاعها السياسية والاجتماعية المتردية فى الداخل من جهة أخرى ، وتشوه بذلك دورها السياسى وتركيبها الاجتماعى نفسه ٠

كما أن نجاح السيطرة الأجنبية فى خلق طبقة أو شريحة الوسطاء التجاريين والكمبرادوريين المحليين على أنقاض الصناعيين والحرفيين التقليديين ، قد أدى الى ايجاد شرائح برجوازية تجارية وكمبرادورية طفيلية مرتبطة بالخارج ١٠٠٪ ، وحال دون تكون طبقة برجوازية وطنية منتجة بالمعنى العلمى والتاريخى الذى عرفته أوربا فى القرن التاسع عشر ٠ وهو الأمر الذى أدى جدليا الى الاختفاء شبه التام للتعارض أو الصراع بين مصالح هذه الطبقة البرجوازية الجديدة المشوهة التركيب وبين الطبقات الاقطاعية التقليدية السابقة ، وعلى العكس من ذلك مال كلا الطرفين فى كثير من الأحيان الى التحالف فى مواجهة التيارات التقدمية والوطنية تحت تأثير حرص الطبقات الاقطاعية على استمرار مصالحها التقليدية وحصولها على استقرار مصالحها التقليدية وحصولها على احتياجاتها الاستهلاكية المترفة احتياجاتها الاستهلاكية المترفة المستوردة من الخارج كمستهلك شره ، وقيام الأخرى بعملية التوريد والاستهلاك معا(١٠) ٠ اضافة الى كون الارتباط شبه الكلى لكلا الطرفين اقتصاديا وسياسيا فى كثير من الأحيان بالاحتكارات الامبريالية والعالمية وحرص هذه الاحتكارات على تنظيم العلاقة والتعايش بين الطرفين قد قام بدور صمام الأمن والفرملة الحقيقية لتنظيم هذه العلاقات والأوضاع الاقتصادية والسياسية والطبقية المشوهة فى مواجهة المد الوطنى والتحررى حتى الآن ٠

فلقد تميز سلوك الغزو والسيطرة الاستعمارية فى آسيا وبعض مجتمعات شرق وشمال افريقيا فى أنه عمل على تعديل وتكييف أوضاع هذه المجتمعات التقليدية اقتصاديا واجتماعيا بما يتناسب وطبيعة مصالحه ، والمحافظة الى أقصى حد ممكن على هذه الأوضاع نفسها كما هى ، حيث لم تقتض هذه المصالح منه أن يمارس عملية التدمير الاجتماعية والثقافية العميقة التى مارسها فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، أو أن ظروفا تاريخية وحضارية معينة قد حالت دون قدرته ووصوله الى هذا الحد من الممارسة البربرية تلك ،

---

(١٠) راجع التركيب الطبقى للبلدان النامية ، مرجع سابق ، ص ٤٨ و ٥٠ ٠

خصوصا وأنه قد وجد فى طبيعة الأنظمة القائمة ذات البعد الاقطاعى والأرستقراطى المتخلف ما ساعده على تحقيق مهمته الأساسية فى السيطرة والابتزاز الاقتصادى ، ولم تشكل مثل هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية عوائق مباشرة كبيرة أمام تلك المهمة الى الحد الذى شكلته الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأقل ايجابية بالنسبة لاهدافه فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، فعمد الى تدميرها بالكامل بطريقة أو بأخرى ، وذلك على نحو ما سنرى بعد قليل ٠

كل هذه النتائج وغيرها قد أدت مجتمعة الى تكريس حالة التخلف والتبعية الاقتصادية والسياسية المباشرة وغير المباشرة ، وخلق عوائق اجتماعية واقتصادية لا تحصى أمام امكانية احداث تنمية أو تقدم حقيقى يتجاوز بهذه المجتمعات عتبة التخلف بسهولة ما لم تقطع دابر كل صلة لها بمجتمعات المتروبول وتحقق تحررها الاقتصادى والاجتماعى من خلال تحولات ثورية وتقدمية جذرية فى الداخل ، واعادة ترتيب علاقاتها مع الخارج وفقا لمبدأ التكافؤ والمعاملة بالمثل لا مبدأ الوصاية والتبعية ٠

فلقد أظهرت لنا التجربة الحديثة لتطور البلدان المتخلفة ـ كما يقول استافنهاغن ـ ان التقدم الاقتصادى الحقيقى لا يمكن أن يتم انجازه الا عندما تحدث تبدلات عميقة فى البنى الاجتماعية ٠٠ وتعديل شامل فى العلاقات مع الخارج ٠٠ ان التنمية الاقتصاديه ـ ويجرى الاعتراف بذلك أكثر فأكثر ـ ليست مشكلة تقنية ، بل هى سياسية قبل كل شىء ٠٠ انها باختصار تحتم انقلابا فى علاقات الطبقات القائمة ، وفى معظم الأحيان حلول طبقة مكان أخرى فى السلطة(١١) ٠

تشوه المثقفين :

واذا ما رجعنا الآن الى جرثومة بحثنا الأساسية الخاصة بالمثقفين وحاولنا تتبع كل الانعكاسات المباشرة وغير المباشرة لتلك التشوهات وأنماطها المختلفة على هذه الفئة فى القارة الآسيوية بالذات فاننا سوف نجد أنفسنا أمام أنماط مختلفة نسبيا من تشوهات المثقفين فى كل من افريقيا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنرى فيما بعد ٠

---

(١١) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٤ ٠

ففى عموم آسيا تقريبـــا حيث لم تصب مجتمعاتها وثقافاتها بكسور وجروح عميقة وانمـا تم تعديلهـا وتكييفها وتحـــديد حركتها بما تقتضيه متغـيرات المصـــالح الأوربية سياسيا واقتصاديا ، نجـــد أن فئة المثقفين فى هـــذه المجتمعـــات قد ظلت تعبر عن وضعها الصحيح كفئة هامشـية وملحقة بالأوضاع الطبقية المتأصلة السائدة ومعبرة عنهـا ، رغم افتقادها لوعيها بحقيقة ذاتهـــا وطبيعة دورها لبعض الوقت قبيل وأثنـــاء مرحلة الاستقلال السياسى ، ثم ما لبثت أن استعادت هذا الوعى والاحتكام اليه بعد الاستقلال وحتى الآن مختارة وغير مختارة على نحو ما سبق تحليله فى فصل سابق من هذه الدراسة ٠

ولقـــد كانت كل الصفات والمميزات التى تتميز بهـــا الفئة المثقفة فى المجتمعات الآسيوية عن غيرها هى ميلها قبل الاستقلال الى التخلص من أصولها الاجتمـــاعية والطبقية لا بغرض الانتقـــال من طبقة لأخرى رأسيا أو أفقيا ، وانما بهدف تكوين طبقة جديدة ذات نفوذ سياسى وبعد وطنى قومى اصلاحى بشـكل ما ، ولكنهـا فشلت بعـــد الاســـتقلال فشـلا ذريعـا فى تحقيق تلك المهمة التى كانوا يظنون أنها قد صارت فى متناول أيديهم بالفعل وهم يتسلمون أعلام الاســـتقلال ، لسببين رئيسيين ، الأول هو أن امكانية تحول الفئة المثقفة الى طبقة متماسكة وتملك السـلطة هى مسـألة خاطئة تاريخيا ، ومقضى عليها لا محالة ، أما السبب الثانى فهو ان قـــوة التماسك الطبقى الاقطـــاعى والأرستقراطى العـريق فى هذه المجتمعـــات الآسيوية وأصالته قد عجل باكتشاف هذا الخطأ وتصفيته بسرعة ، انطلاقا من الحرص على مصلحة هذه الطبقات والدفاع عنها فى الأساس ٠

حيث ما لبثت هذه الفئة فى المجتمعات الآسيوية التى يمكن أن نضم اليها الأقطار العربية فى افريقيا مصر والمغرب العربى الى حد ما ، أن عادت الى البحث عن هوية وانتماء مجزى اقتصاديا وسياسيا ، سواء بالعودة الى أصولها القديمة أو غيرها من التشكيلات البرجوازية والكمبرادورية الجديدة ، وفى نطـــاق المجتمع القومى المتجانس ، دون أن تصطدم بعوائق اجتمـــاعية وكسور حضارية وثقـافية كبـيرة على غرار ما حدث فى مجتمعات افريقيـا وأمريكا اللاتينية على نحو ما سنوضح بعد قليل ، اذا ما استثنينا المجتمع الهندى الذى يتميز نظامه الطبقى بفواصل وعوائق اجتماعية وثقافية ذاتية أكثر تعقيدا ٠

لقـــد تحولت اهتمامات وطموحات المثقفين فى آسـيا وشمال شرق

افريقيا « مصر بالذات » من البحث عن طبقة جديدة مسيطرة الى البحث عن مواضع انتماء كامل داخل الطبقات الاقطاعية والبرجوازية المسيطرة ، والتخلى تماما عن أصولهم القديمة اذا لم تكن من هذا الطراز الاقطاعى والبرجوازى المسيطر والمجزى سياسيا واقتصاديا ، ما عدا قلة وطنية وتقدمية محدودة استطاعت أن تحافظ على التزامها القومى والوطنى الثورى وتطوره من خلال البحث عن الانتماء الطبقى للطبقات العمالية والفلاحية والبروليتارية المضادة والالتزام بمصالحها وفكرها ٠

ومصر تقدم أفضل نموذج لهذه الحقيقة فى كل تاريخها المعاصر ، حيث أنه بالرغم من مجموعة الاجراءات والتحولات اللبرالية والوطنية التى تمت بعد الاستقلال وقيام ثورة ١٩٥٢ والتى أتاحت حراكا اجتماعيا وطبقيا أكثر حيوية صعودا وهبوطا . من خلال مجانية التعليم واجراءات الاصلاح الزراعى وشكليات التمثيل البرلمانى ٠٠ الخ ٠ الا أن مجموعة تلك الاجراءات والتحولات المتواضعة لم تؤدى الى أى تحول يذكر فى البناء الطبقى القديم وعلاقاته التقليدية ، بقدر ما أدت الى اتساع مظلة الطبقة الاقطاعية القديمة والبرجوازية الجديدة عن طريق تزويدها وتجديدها بقطاع اجتماعى واسع من عناصر الطبقات العمالية والفلاحية الشديدة البؤس والتخلف والحرمان ، ممن استفادوا من فرص التعليم كمثقفين ومهنيين ، ونجحوا فى تغيير أوضاعهم الاجتماعية لا فى نطاق طبقاتهم الاصلية والتعبير عنها وعن مصالحها والدفاع عن هذه المصالح ، بل فى نطاق الطبقات الاقطاعية والبرجوازية والانسلاخ شبه الكلى عن أصولهم الاجتماعية والطبقية العمالية أو الفلاحية القديمة ، وقطع كل علاقة وصلة حقيقية لهم بهذه الطبقات التى تعانى فى قاع المجتمع منذ زمن طويل ، رغم كل ادعاءات الارتباط الشكلى بين قلة تستغل وتسيطر فى القمة وكثرة مسحوقة تماما فى القاعدة ، والذى تعودت أن تمارسه مثل تلك العناصر للمناورات السياسية لا أكثر ، يشاركها فى ذلك مجموع أفراد الطبقة الاقطاعية والبرجوازية القديمة الأكثر استغلالا وتسلطا تحت نفس الدوافع ٠

ذلك أن شدة الظلم والقهر والاستغلال المعتق الذى ترسف تحته طبقة الفلاحين فى مصر والتى تشكل بأغلبيتها الساحقة صلب المجتمع المصرى عبر قرون طويلة تحت وطأة الغزاة القادمين من الخارج أو المتسلطين فى الداخل أو هما معا فى معظم الحالات قد أصاب هذه الطبقة وغيرها من الفئات والطبقات المقهورة فى المجتمع بنوع من الاستلاب واللامبالاة ، وفقدان الوعى بالذات ، الى حد افتقادها لأدنى حدود المبادرة تجاه نفسها ،

الأمر الذى أشار اليه استافنهاغن بقوله : فظروف هذه الأكثرية من الشعب المصرى هى فى غاية البؤس وهى - أى هذه الظروف - ككل متدنية وأقرب ما تكون بحالة « التشرد » ومعدومة الانسانية ، لدرجة أن بعضهم (الكلام ما يزال لستيفانهاغن) كتب يصفها قائلا : « ان هذه الجماهير الشعبية الخاملة واللامبالية لا تشارك بأية طريقة من الطرق فى الحياة العامة للبلاد ، ولا تشعر بأية رغبة أو أى ايمان فى صناعة تاريخها »(١٢) . ويضيف قائلا فى نفس الموضع : لا شك أن هذا الحكم يبدو قاسيا الا أن المسافة الاجتماعية التى تفصل هذه الجماهير الشعبية عن « الآخرين » (كل الآخرين) هى بالتأكيد العقبة التى تحول دون تبلور طبقة اجتماعية واعية لذاتها . ويؤكد هؤلاء الدارسين « لهذا السبب » أن هذه الجماهير الغائبة سياسيا والمفتقرة الى وعى مصالحها لا تؤمن بأى نظام وهمى لتعلقها به أن يخلق لديها اهتماما تدافع عنه ..(١٣) . ويذكر الدكتور محمود الكردى فى بحث أكثر حداثة مشيرا الى مثل هذه المتغيرات فى الأوضاع الطبقية الدنيا الآنفة الذكر قائلا : انه نتيجة لتلك المتغيرات مجتمعة ومتفاعلة نلحظ فئات هذه الطبقة الدنيا وقد غاب وعيهم بالأوضاع الحقيقية التى يحيون فى ظلها ، ويؤدى ذلك بالتالى الى تدنى مستويات طموحهم للدرجة التى يبدو معها وكأنهم غير مستائين من أوضاعهم تلك ،(١٤) .

والاستثناء المعاصر الوحيد الذى يمكن ملاحظته فى حياة المجتمع المصرى كما سبقت الاشارة هو ما حدث بصورة مؤقته بعد ثورة ١٩٥٢ حينما بدأت فئة اجتماعية وسطية تظهر وتتطلع الى تكوين فئة أو طبقة مثقفة جديدة صاعدة من أسفل ، بما فيهم المثقفون ، حيث نلاحظ فى بحث قيم أكثر حداثة عن التخلف ومشكلات المجتمع المصرى أشارة الدكتور محمود الكردى الى فئة المثقفين فى مصر والذين يصنفهم ضمن الطبقة الوسطى التى برزت بعد الاصلاحات الجزئية التى نفذتها ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ومن خلالها وما لحق بهم من فشل وتمزق بقوله : وكانت هذه الطبقة هى أكثر الفئات تفاؤلا (بحكم تكوينها العمرى ونصيبها من التعليم) بالأحوال المستقبلية للمجتمع المصرى ، الا أن هزيمة ١٩٦٧ جعلتها أكثر الفئات قلقا

---

(١٢) ر. استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٠٤ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٠٤ (أنظر الهامش) .

(١٤) د. محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ ، ص ٣٣٥ .

وحيرة ، فمعظمها من فئة الشباب الذين أعدوا بشكل معين أظهر لهم المجتمع فى صورة مستقبلية حالمة ، وتخيل كل منهم أن دوره هام وفعال فى تحقيق كل ذلك ، ودون مقدمات ، ففوجىء كل منهم بالصورة وقد صارت متناقضة ، فالضعف باد فى كل شىء وما هو بقادر على تغيره(١٥) ٠

وهو فى تقديرنا الأمر الذى جعل من حصول أى فرد من أفراد هذه الطبقة المسحوقة على فرصة للخلاص منها والانتقال الى طبقة المستغلين على نحو ما سبق ذكره قاعدة عامة للطموح الاجتماعى بين أفرادها ، وليس مجرد أنحراف أو عقوق ونكران بجميلها ، الى حد أن مثل هؤلاء الأفراد المحظوظين ممن نجحوا فى أنتشال أنفسهم سياسيا واقتصاديا يتحرجون جدا من مجرد تذكيرهم بأصولهم الاجتماعية القريبة العهد بهم (حتى أبائهم وأخوانهم من الفلاحين الفقراء أو غيرهم من أبناء طبقتهم الأصلية) الذين أصبحوا موضع سخريتهم ولعنة ماضيهم التى تعكر صفو حاضرهم أحيانا ، ويحرصون على مواراتها والتخلص منها بقدر حرصهم على استكمال عضويتهم فى الطبقة الجديدة ، فى ما يشبه عملية التناسب العكسى تماما ٠

وهنا تكمن مأساة المثقفين الوطنيين بالذات ذوى الأصـــول الفقيرة والكادحة فى مصر وغيرها من المجتمعات الآسيوية فى أنهم لم يستطيعوا بعد أن يكونوا مثقفين الا خارج طبقاتهم وضمن طبقات أخرى معادية فى الأساس لطبقتهم الأصلية ، أو مجرد مثقفين وطنيين لأنفسهم فى أحسن الأحوال ٠

وفى الهند تتكرر نفس الصورة بنفس الايقاع من حيث قدرة أفراد الطبقات المختلفة على أكتساب الثقافة والامتيازات الاقتصادية والمهنيـــة وأحيانا السياسية بفضل بعض التشريعات القومية الحديثة ، الا أن الحواجز الاجتماعية والدينية تبدو أكثر تعقيدا بما لا يقاس بالنسبة لمصر ، حيث لا تسمح هذه الحواجز بخرقها أو تعديلها فى المجتمع الهندى الا فى حياة ما بعد الموت ، حيث لا يستطيع (البينيان) الذين تتكـــون منهم غالبية الشعب الهندى الأصلى أن يصيروا « شودرا » (طبقة الجند والسياسيين) كما لا يستطيع أفراد هذه الطبقة الأخرى أن يتصوروا أمكانية انتقالهم الى طبقة « البراهما » (رجال الدين) الا اذا اتفانا أفراد كل طبقة فى خدمة وطاعة من يليها من أعلا مدة حياتهم ، فيكافؤن مقابل ذلك بأن يبعثوا بعد

---

(١٥) د٠ محمود الكردى : التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، طبعة ١٩٧٩ ، ص٣٣٤ ٠

موتهم وبعد أن يطهر الاله أرواحهم النجسة ويبعثها من جديد فى أجسام طبقة أرقاء . أما اذا اساؤا فان أرواحهم قد يعاد بعثها فى أجسام حيوانات وحشرات قذرة ، أو لا يعاد بعثهم على الاطلاق ، وذلك وفقا لمبدأ « تناسخ الأرواح »(١٦) . يضاف الى ذلك أساسا طبيعة التركيب الطبقى والاقتصادى فى المجتمع الهندى وطراز العلاقات السائدة بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج الاقطاعية الشديدة الاستغلال بالنسبة لمن يملكون كل شىء ومن لا يملكون حتى أنفسهم ، والتى تعبر عن مدى فسادها وانحطاطها محمل تلك المفاهيم والأفكار والفلسفات الميتافيزيقية والخرافية المنحطة أيضا .

فكل هذه الأفكار الميتافيزيقية والخرافية المغرقة فى القدم والتقليدية فى المجتمع الهندى أو غيره لا تعدو كونها مجرد تدابير أيدولوجية واجتماعية أكثر تكريسا واحكاما لسيطرة طبقة على طبقة أخرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

والشىء ذاته - كما يقول استافنهاغن - بالنسبة للتمييز العنصرى ازاء السود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تمتد جذوره الى الرق بقدر ما تمتد الى التطور الذى أصاب الرأسمالية الصناعية على اثر الغاء الرق ، فالتمييز العنصرى ينبع أذن أولا وبجلاء من وضع طبقى ما يزال مستمرا الى حد كبير حتى الآن(١٧) . وهنا أيضا تكمن صعوبة أن يكون المثقفون الوطنيون ذوى الأصول الشعبية المقهورة هم مثقفون لطبقاتهم بالدرجة الأولى ، لأن هذه الطبقات قد لا تقوى على تقبل آرائهم بسهولة كما قد يتصورون عادة ، ناهيك عن ميلهم الدائم كفئة هامشية الى البحث عن مجرد مخرج يخصهم بالدرجة الأولى فى معظم الأحيان بشكل أو بآخر على نحو ما سبقت الاشارة بالنسبة للمجتمع المصرى ، ولم تستطع الطبقات المسحوقة فى هذه المجتمعات أن تسترد من أبنائها الذين دفعت بهم الى ميدان التعليم والثقافة فى العصر الحديث الا القليل جدا رغم قلتهم أصلا .

فى أفريقيا : غرب وجنوب الصحراء :

ان النتائج السابقة الأكثر شيوعا فى المجتمعات الآسيوية وبالذات فى مصر وتركيا وايران والهند وجنوب شرق آسيا بصفة عامة « أندونيسيا

---

(١٦) راجع بصفة عامة دكتور أحمد شلبى : الديانة الهندية ، سلسلة مقارنة الأديان ، دار نهضة مصر - طبعة ١٩٧٧ .

(١٧) د. استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٢٩ .

والفلبين بالذات » يمكن أن نجد لها قرائن وامتدادات مشابهة الى هذا الحد أو ذاك فى أفريقيا وبالذات شمال وشمال شرق القارة ، أما معظم أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فانه بالرغم من تشابه النتائج الاقتصادية والسياسية الا أن الوقائع والوسائل التى أدت الى ذلك قد اختلفت كثيرا ، وفقا لطبيعة اختلاف الظروف الاجتماعية والتاريخية المتميزة ، حيث لم تكن توجد فى هذه المجتمعات الافريقية (غرب وجنوب الصحراء) طبقات وارستقراطيات اقطاعية عريقة المجد والتاريخ الاقتصادى والسياسى والدينى كما هو الحال بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ، حيث كانت توجد بدلا من ذلك مجتمعات قرابية بسيطة تحكمها وتنظم شئونها علاقات القرابة العائلية بالدرجة الأولى ، وليس علاقات الملكية العقارية والطبقية ، وحيث كانت غالبية هذه المجتمعات ولا تزال جذورها الاجتماعية تعيش علاقات الاقتصاد المشاعى فى استثمار الارض والرعى الى حد كبير ، ولا تعرف معنى الملكية الخاصة ، حتى غداة الغزو الاستعمارى لهذه القارة المتناهية الخيرات والموارد الاقتصادية المغرية ، حيث عمد الاستعمار الى افساد هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتخريبها حتى العمق ٠

فلقد كانت الأرض كوسيلة انتاج أساسية فى هذه المجتمعات الأفريقية هى - كما يقول استافنهاغن - ليست أداة من أدوات التملك الخاص ، حتى أن مفهوم الملكية الخاصة لم يتطور فيها - أى فى هذه المجتمعات - الا قليلا هذا ان لم يتطور مطلقا ، اذ أن هذه المجتمعات لا تعرف الانقسام الى طبقات اجتماعية ، ويضيف قائلا : وأننا لنجد فى هذه المجتمعات « البدائية » (على حد تعبيره) أنظمة تراتب مستقلة للبنية الاجتماعية ٠٠ ولا تشمل مطلقا سلسلة هرمية من عدة شرائح الواحدة منها فوق الاخرى ، بل تحتوى بالاحرى أوضاعا متباينة لبعض الأفراد ولبعض الأنساب الذين يمكن ربطهم بعناصر رفيعة الشأن(١٨) ٠ كما أن الملكية الخاصة لم تكن معروفة قبل الغزو الأوربى ، ولم تكن معتبرة كقيمة تبادلية(١٩) ٠ ففى البلدان الافريقية الواقعة جنوب الصحراء - كما يذكر مجموعة من الباحثين السوفييت - كانت العلاقات الاقطاعية عشية الوقوع تحت الاحتلال الاستعمارى معدومة أو هى فى المراحل الأولى من تطورها(٢٠) ٠

---

(١٨) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٤٠ ٠

(١٩) المرجع السابق ص ١٠٦ ٠

(٢٠) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٤٠ ٠

وقبل ان نسترسل فى تحليل هذه القضية أود أن أشير أو أعقب على كثير من التحليلات الاقتصادية والاجتماعية لتلك المرحلة التى كانت تعيشها هذه المجتمعات الافريقية قبل الغزو ، وما تزال لها أثارها حتى الآن ، والتى وصفها الليبراليون والمنظرون الغربيون بأنها المرحلة الأكثر بدائية والأقرب الى الوحشية ، وأنه مهما بدت مساوء وسلوك وتصرفات الغزاة المستعمرين تجاه هذه المجتمعات وأتسامها بالقرصنة والشذوذ فى بعض الأحيان ، الا أنه لا يجب أن يقلل ذلك من أهمية دورهم فى أعداد هذه المجتمعات وتهيئتها للدخول فى مرحلة التطور التاريخى الأكثر تقدما مهما بدت لنا قاتمة ، فهى بالقياس الى ما قبلها تبدوا أهون شرا ، وخطوة الى الامام ، كما أن بعض اليساريين السطحيين قد تورطو فى الوقوع فى مثل هذا المنطق العنصرى والامبريالى العقيم الذى لا تخفى مقاصده بطريقة مباشرة وغير مباشرة ولو بدون وعى منهم ، وذلك حينما أطلقوا على هذه المرحلة بأنها من بقايا المجتمع المشاعى ، الأمر الذى قد يكون صحيحا الى حد ما وبشكل ما ، وأن هذه المجتمعات ما تزال هى أكثر من غيرها بعدا عن امكانية التحول الاشتراكى قبل أن تمر بالمرحلة الاقطاعية التى تمر بها معظم المجتمعات الآسيوية ، والمرحلة الرأسمالية التى تمر بها المتجمعات الرأسمالية ، وهم بذلك يبررون بوعى منهم أو بدونه وجهة النظر الاستعمارية والامبريالية السابقة الرامية الى تبرير ما حدث ويحدث لهذه المجتمعات من ألوان التشويه والتخريب والسيطرة ٠

وعلى العكس من كل ما سبق ، فان تقديرنا بأن المرحلة التى كانت تمر بها المجتمعات الأفريقية قبل الغزو وما تزال دلالاتها باقية بعده وحتى الآن ، هى أكثر المراحل امكانية وأقل كلفة فى التحول نحو الاشتراكية والتقدم بسهولة ، بالنسبة للمجتمعات الآسيوية ذات الانماط الاقطاعية والأرستقراطية العريقة ، لان الأولى لا تحتاج لكى تتحول الى الاشتراكية سوا عملية واحدة وهى البناء الاشتراكى فى ظروف اقتصادية واجتماعية أكثر مواتاه تماما ، بينما تتطلب الأخيرة لكى تسير فى نفس الطريق عملية مزدوجة أكثر مشقة وكلفة ، وهى هدم الاقطاع القديم بكل أبعاده ، وبناء المجتمع الاشتراكى بكل مفاهيمه ، خصوصا وان المقولة الماركسية القديمة فى ضرورة اجتياز المراحل للوصول الى الاشتراكية ، لم يعد لها مكان مرموق فى الممارسة العملية الثورية المتنامية ، وصارت مجرد حقيقة فى تاريخ المقولات النظرية التى لم يصادفها الحظ فى التطبيق العملى الا قليلا وضمن حقائق أخرى متنوعة ٠ ولقد اشار مجموعة من الباحثين السوفيت المحدثين الى أن حرمان غالبية سكان الريف البروليتاريين فى آسيا وأمريكا

الاتينية ومظاهر المشاعية البدائية فى أفريقيا تشكل عاملا مساعدا لتخلصهم من نزعة التملك البرجوازى وتوحيدهم فى النضال ضد مستغليهم(٢١) ٠

ولآن الاستعمار لم يعثر فى هذه المجتمعات على طموحات ومصالح طبقات اقطاعية وارستقراطيات محلية عريقة ومعقدة ، ينسق مصالحه من خلالها على نحو ما حدث فى آسيا ، بل أصتدم بمجتمع شبه مشاعى وشديد التماسك فى افريقيا السوداء ، لذلك فقد ركز وصولا الى نفس النتائج السياسية والاقتصادية التى توصل اليها فى آسيا وقبلها فى أمريكا اللاتينية على ثلاثة مداخل رئيسية :

(أ) عدم الاقتصار على تشويه وتدمير الواقع الاقتصادى على نحو ما حدث فى آسيا فحسب ، بل لقد عمد الى تحطيم وتشويه الواقع الاجتماعى والثقافى أيضا ، عن طريق فرض التخاطب والتعامل باللغات الأجنبية ونشر ثقافتها بدلا من اللغات القومية المحلية وثقافتها التى مالت الى الاندثار وفرض نظم وتشريعات قضائية ومدنية ودينية تتعارض مع كل مقومات المجتمع الأصلى ، وتتيح للأجانب حق امتلاك الأراضىالزراعية واستثمارها ، وممارسة عمليات العزل الاجتماعى لمناطق الأجانب عن السكان الأصليين أو العكس ، بما فى ذلك مناطق العمل نفسها فى المناجم والمزارع ، الآمر الذى أدى بعد الاستقلال الى فرض أوضاع مجتمعات مستقلة سياسيا يشكل فيها الوضع الاستعمارى الفعلى الاطار الاقتصادى والسوسيولوجى (الاجتماعى) للبلاد(٢٢) ٠

(ب) اقامة عدد كبير من محطات التجميع والتوزيع التجارية والمناطق الحضرية الحديثة على السواحل ومناطق التعدين ومناطق المزارع الاقتصادية الخصبة التى تم الاستيلاء عليها من السكان الأصليين ، يقطنها ويملكها الاوربيون الأجانب من الحكام السياسيين والعسكريين ومديرو وموظفو وكالات وشركات المستثمرين البيض بالدرجة الأولى ، وأشبه ما تكون بالمعسكرات المغلقة تجاه المجتمع المحلى والقومى ، والمرتبطة بالخارج مائة فى المائة (١٠٠٪) ، والتى تحولت فيما بعد الى مدن ، حيث كان يقتصر دورها

---

(٢١) عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٤٩٤ و ٤٩٥ ٠

(٢٢) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٠ ٠

بالنسبة للمجتمع المحلى كمجرد مراكز لاستخراج وتجميع المواد الخـــام والحاصلات الزراعية استعدادا لنقلها الى الخارج من جهة ، واستقبال وتوزيع السلع الاستهلاكية المصنعة فى الخارج على السكان الأصليين فى الداخل من جهة أخرى ، من مئات وألوف العمال الأفريقيين الذين تستقبلهم هذه المراكز الأشبه بالمعسكرات فى الصباح ، والقادمين من القرى والمناطق الريفيـــة المجاورة مختارين وغير مختارين للعمل فى المزارع والمناجم وأعمال الشحن والتفريغ ، وأعادتهم من حيث أتوا فى المساء أو فى نهاية الموسم فى أحسن الأحوال ، تحت ظروف عمل بالغة السوء ، حيث يذكر أستافنهاغن عن هذه المراكز قوله : بأن معظم هذه المدن أنشأتها حركة الاستعمار فى سبيل غايات محددة تماما (غايات تجارية ، وأدارية ، أو صناعية) وحافظت ــ أى هذه المدن ــ حتى الى ما قبل فترة قصيرة على صلات اقتصادية وثقافية مع أوربا أكثر من الصلات التى كانت تربطها بالارض الأفريقية(٢٣) .

(ج) القيـــام بعملية افساد سياسى واقتصادى وثقافى منظم لرؤساء القبائل والعشائر والعائلات والعناصر المثقفة التى حصلت على قسط معين من التعليم والتأهيـــل المهنى والفنى اللازم لأداء بعض الأعمال المســـاعدة والتكميلية للادارة الاستعمارية ، وذلك بدفعهم الى التخلى عن كل مفاهيمهم وعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية القديمة ذات الطابع الجماعى والمشاركة العامة وتغليب الاعتبارات الاجتماعية على الاعتبارات الاقتصادية ، وذلـك باغرائهم بالميل الى الاعتراف بما تصدره هـذه الادارة الاستعمارية من نظم وتشريعات وقوانين رأسمالية تتيح لهم تكوين ملكيات خاصة للارض والموارد الطبيعية بدلا من الملكيات الجماعية ، أو على الأصح تتيح لهم تحويل معظم الملكيات الجماعية للأسرة أو الجماعة أو العشيرة والقبيلة للأرض الى ملكية خاصة يتقاسمونها مع الأجانب ، اضافة الى ما يحصلون عليه من امتيازات واغراءات سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى مقابل ذلك فى ظل الادارة الاستعمارية ومن خلالها ، كوسطاء ومتمصلحين طفيليين ، يعتمدون على هذه الادارة فى الحصول على نمط معين من المعيشة المترفة والاستهلاك السلعى الذى لم يكونوا قد عرفوه من قبل أو تعودوا عليه الا فى ظل هذه الادارة والتكامل معها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، كما يعتمدون فى فرض مصالحهم الجديدة وتعزيز سلطـاتهم السياسية والاجتماعية التقليديـة على جماعاتهم ومناطقهم التقليدية على هذه الادارة أيضا ، ويستمدون منها شرعيتهم وشرعية

---

(٢٣) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٦١ .

مصالحهم القديمة والجديدة بدلا من أن يستمدوها من الوضع التقليدى الأصلى الذى كان يربط ربطا دقيقا وقويا بين شرعية الحصول على هـذه السلطة والمكانة وبين الارتباط الكلى بالجماعة الأصلية والاحترام المطلق لنظمهـا والمحافظة عليها ، والتى أصبحت تتعارض جوهريا مـع كل ما آلت اليه الأوضاع الجديدة لأفراد هذه الشريحة ، خصوصا فيما يتعلق بتملك الأرض ملكية خاصة ، حيث كانت وما تزال مبـادىء التنظيم الاجتماعى القائمة على العرف والخاصة بالحصول على الأرض ، تقضى بمنع هؤلاء الزعماء من التحول بواسطة مراكز المسيطرة فى السلم الاجتماعى الى مزارعين منظمين وملاكين عقاريين كبار(٢٤) ، ذلك أنه ليس من ملكية خاصة للارض فى المجتمعـات الأفريقية الأصلية ، فالحقوق العقارية حقوق جماعيـة ، فالمجتمع الأغنى بكامله فى ساحل العاج « مثلا » ، هو الذى يملك مبدئيا الاراضى التى يقيم عليها المجتمع ، والحيازة هى حق من حقوق الاستعمال فقط غير القابـل للتصرف واستصلاح الارض هو الذى يكرس الحيازة(٢٥) .

ولقد أدت هذه العوامل الثلاثة التى اعتمد عليها الاستعمار فى تخريب وتشويه هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية الأصيلـة فى أفريقيا غرب وجنوب الصحراء فى نهاية الأمر الى بلورة عدد كبير من التشوهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بناء هذه المجتمعات التى كانت أقل تعقيدا وأكثر مواتاه من المجتمعات الآسيوية لأحداث تنمية اشتراكية واحداث تقـدم حقيقى ، وذلك حينما أدت الى فساد كل المقومات الاقتصـادية والاجتماعية والثقافية الايجابية فى المجتمع (الغاء الملكية الجماعية والاستثمار الجمـاعى للارض - تفتيت الترابط والتماسك الاجتماعى التكاملى العريق المستمد من نظام القرابة والأسرة - حجب اللغات والثقافات الوطنية وعزلها بصفة شبه نهائية) كما أن هذه التشوهات التى أصابت المجتمع التقليدى بفعـل السياسة الاستعمارية قد حالت فى الوقت نفسه دون تحـول المجتمع الى مجتمع ثقافى أقطاعى أو برجوازية على أى نمط معاصر كما هو المفترض عادة، لأن العناصر التى أغريت بالتخلى عن مفاهيم وأسس المجتمع التقليدى لم تتحول الى طبقة اقطاعية أو برجوازية واضحة البنيان والمعالم ، بقدر ما أن هـذه العناصر المكونة من بعض أفراد الزعامات التقليدية والعنـاصر الأكثر احتكاكا بالادارة الاستعمارية قد كونت شريحة سياسيا واقتصادية متكاملة

---

(٢٤) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٥ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٣٩ و ١٤٠ .

كلية مع الادارة الاستعمارية ومرتبطة بها سياسيا واقتصاديا وثقافيا الى حد كبير ، أكثر من ارتباطها بأصولها الاجتماعية وواقعها الثقافى والقومى ٠

ففى مناطق أفريقيا السوداء التى وجد بها استعمار قوى ، لا سيما فى اتحاد جنوب أفريقيا وكينيا نجد - كما يقول أستافنهاغن - طبقة من المزارعين قد نمت وتطورت بصورة مبكرة فى الاراضى التى طرد منها السكان الأصليون الا أن هذه الطبقة قد فرضت نفسها من فوق على المجتمع وهى جزء من المجتمع الاستعمارى ضمن نطاق الوضع الاستعمارى(٢٦) ٠

كما أن مئات وألوف من العمال الذين كان يتم أستخدامهم للعمل فى المزارع والمناجم والخدمات المختلفة لم يتحولو الى طبقة عاملة ذات سمات وملامح معينة بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، لأن ظروف التشغيل كانت تتم اما بالاكراه والسخرة أو بدافع البحث عن المبالغ النقدية التافهة التى تعطى لهم فى نهاية كل يوم ، أو فى نهاية الاسبوع ، لكى يتمكنوا بواسطتها من شراء بعض السلع الاستهلاكية المصنعة القادمة من الخارج ، من ملابس وغيرها ، والعودة الى أسرهم بعد نهاية يوم العمل أو موسم العمل فى أحسن الأحوال ، حيث يتشكل وضعهم الاجتماعى والطبقى الصحيح ضمن روابط الاسرة والقرابة التقليدية ، ولا يعودون للعمل الا حينما تتجدد أحتياجاتهم الشخصية والاسرية تلك ، أو يجبرون عليه بالقوة ، خصوصا فيما يتعلق بمواسم الحصاد وجنى المحاصيل الزراعية للبن والكاكاو ، والتى تتطلب أكبر كمية ممكنة من اليد العاملة وفى أقصر وقت ممكن ٠

كما أن ممارسة سياسة العزل الاجتماعى لهذه الفئة العاملة الواسعة النطاق من قبل الادارة الاستعمارية سواء فى مواقع العمل أو الحياة العامة، وتشغيلهم تحت ظروف اجتماعية واقتصادية بالغة السوء وخالية من أى ضمانات للاستقرار الاقتصادى والاجتماعى وأبسط المفاهيم الانسانية ، لم يكن كل ذلك لمجرد الامعان فى استغلال هذا القطاع الواسع من المجتمع بأبتزاز طاقته الانتاجية بلا مقابل تقريبا فحسب بل لقد كان ذلك هو ترجمة عملية لرغبة واعية من قبل تلك الادارة فى تكريس وضعهم الاجتماعى الهامشى الذى يحول دون ارتباطهم بقوى الانتاج وحتى لا يتحولوا الى طبقة عمالية متماسكة مرتبطة بمواقع العمل وقادرة على تغيير علاقات هذا العمل

---

(٢٦) الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١٢٥ ٠

الاستغلالية السائدة ، ويضمن فى الوقت نفسه عدم قدرة المجتمع بأسره على توفير الحد الأدنى من متطلباته التى أصبح ينتظر ٩٠٪ منها من الخارج وبالمقابل النقدى دون أن يدفع بهذه المجاميع الواسعة من أبنائه فى ظل تلك الظروف وكيف ما أتفق ، يساعده على ذلك ميل المجتمع التقليدى نفسه الى استمرار ارتباط أبنائهم به وعدم انفصالهم عنه ٠

ولقد اشار مجموعة من العلماء السوفيت الى هذه الحقيقة بصفة عامة بالقول : ان احتكاك العمال المتواصل بالتنظيمات الاجتماعية التقليدية (كالقبيلة والعشيرة والجماعة أو العائلة الكبيرة) التى يحافظوا على عضويتهم فيها ، تعيق نضوج الوعى الطبقى ونشوء وتطور التنظيمات البروليتارية الطبقية وانتشار الايديولوجية البروليتارية ، وبالمقابل تضعف أيضا التنظيمات الريفية التقليدية وتتعرض للتأثيرات الخارجية ، مفتقدة عزلتها وانغلاقها على نفسها(٢٧) ٠

والصورة المريرة التى يشير اليها د٠ استافنهاغن حول هذه المسألة بالنسبة لبعض المجتمعات الافريقية تؤكد هذه الحقيقة ، حيث يشير الى ما ورد فى تقرير احدى اللجان الفنية لمناجم التعدين التى كلفت باجراء تحقيق عن أجور السكان الأصليين جاء فيه : « ان من مصلحة المناجم أن يتم تشجيع العمال من السكان الأصليين على العودة الى ديارهم فور انتهاء الفترة المحددة لخدماتهم ٠٠ والا فان الوسائل المساعدة للقوت (والمقصود هنا المواسم الزراعية المحلية) ستختفى من حياتهم ، وسيصبح العامل ميالا الى التحول الى مقيم دائم فى منطقة العمل وذى حاجات أكبر ٠٠٠ ويضيف استافنهاغن قوله : بأن الشركات فى سبيل الوصول الى أهدافها قد استعانت بمختلف الطرق والأساليب المؤدية الى ذلك ، فعقود العمل مداها محدد تماما ، وشروط العمل والاقامة فى المناجم قاسية لدرجة أن العامل لا يخطر ببساله مطلقا احضار عائلته الى مقر عمله ، ثم أنه عندما يرجع الى ديارته فانه ينبغى عليه أن يمضى فترة من الوقت قبل أن يسمح له بالالتحاق ثانية بعمله ، كما وأنه لا يسمح للاشخاص غير القادرين على تبرير وجودهم عن طريق عقد العمل بالاقامة فى المناطق التى تقع خارج اطار مناطق قبائلهم ، كما أن قسما رئيسيا من الاجر لا يسلم الا عند نهاية العقد أى عندما يغادر العامل الى دياره ٠ ويتعاون فى سبيل ذلك كل من ادارة شركات المناجم « الأجنبية

---

(٢٧) مجموعة من العلماء السوفييت : التركيب الطبقى فى البلدان النامية ، ص ٧٢ ٠

طبعا » والزعماء المحليون ما وسعهم ليحولوا أو يجمدوا « تفكك القبيلة وتفسخها » أى لكى يبقى العامل المهاجر مندمجا نفسيا وجسمانيا بقبيلته(٢٨) ٠

ومن خلال هذه الوقائع نستطيع أن نتصور ما لحق بأوضاع هذه المجتمعات من تشوهات اقتصادية واجتماعية عميقة قبل وبعد الاستقلال على السواء ٠ ناهيك عما كان قد لحق بمجتمعات هذه القارة من تشوهات اجتماعية عميقة من جراء افتقادها لأكثر من عشرين مليونا من سكانها فى سن الشباب تم نقلهم الى العالم الجديد كسلع للبيع والشراء فى ظروف قهر واستعباد لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ، بداء من حوالى عام ١٥٢١ وحتى عام ١٨٨٨ ، ذلك أنه اذا كانت العبودية قد الغيت سياسيا فى الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ فقد كان لا بد من الانتظار حتى عام ١٨٨٨ كى تزول من البرازيل(٢٩) ٠ والعبودية بشكل عام اذا كانت قد زالت سياسيا وكشكل من أشكال التجارة والاستثمار المربح الذى مارسته الرأسمالية الاوربية الغازية فى القرون الماضية ، الا انها لم تزل بعد كمفهوم اجتماعى واقتصادى وطبقى حتى الآن فى هذه المجتمعات وتوابعها ٠

تشوه فئة المثقفين فى أفريقيا :

لاحظنا فى افريقيا غرب وجنوب الصحراء أن الأوضاع الاجتماعية والطبقية بالذات كانت تميل أكثر الى البساطة وعدم التعقيد الاقتصادى والسياسى والاجتماعى أيضا ، فان الفئات الاجتماعية التى نجحت فى تحديث أوضاعها التقليدية اقتصاديا وثقافيا فى ظل الادارة الاستعمارية وبفعلها قد مالوا - على نحو ما سبقت الاشارة - الى التكامل والاندماج مع هذه الادارة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا أكثر من تكاملهم مع أية أوضاع طبقية محلية قديمة أو حديثة ، بما فى ذلك فئة المثقفين على وجه التحديد ، حيث صارت ثقافة المستعمر ولغته هى الثقافة واللغة الرسمية ، الى الحد الذى يمكن أعتبار حركة التحرر والاستقلال السياسى التى تمت فى هذه المجتمعات كانت عملية استقلال فى نطاق تلك الثقافة وليس تحررا منها بالفعل ٠

كما أن الفئات السياسية المثقفة التى تكونت وفق تلك الظروف المشار اليها سابقا وناضلت من أجل الاستقلال السياسى الذى حصلت عليه فى اطار نفس الظروف والمفاهيم ، هذه الفئات لم تصدم غداة الاستقلال بمؤسسات طبقية محلية قوية من أى نوع تحول دون طموحاتها كفئة أو

---

(٢٨) ر٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ١١٧ و ١١٨ ٠
(٢٩) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١٠٢ و ١٠٣ ٠

صفوة على نحو ما حدث فى معظم المجتمعات الآسيوية وبعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا ، أو تحد منها على الأقل وتجبرها على مراجعة هذه المفاهيم والمطموحات الفئوية والشخصية الحاطئة والمنحرفة ، لذلك فان أفراد هذه الفئات أو النخبات السياسية والاجتماعية قد نجحت الى حد ما فى الامساك بزمام السلطة بعد الزوال الشكلى للاستعمار سياسيا فى ظل دكتاتوريات عسكرية وشخصية مفعمة بالمفاسد السياسية والاقتصادية والشخصية ٠ حيث أمعنت هذه النخب السياسية والعسكرية البيروقراطية نصف المثقفة فى البحث عن مظاهر الابهة والترف والمجون الشحصى وأعاقة كل أمكانية لخلق أوضاع اجتماعية وسياسية طبيعية من أى نوع ، ناهيك عن امكانية احداث تنمية أو تقدم اجتماعى حقيقى ، محتمين بظل الاستعمار المباشر وغير المباشر الذى لم يفارقهم قط أو ينتقص من نفوذه ومصالحه شىء ان لم تكن قد تكرست بطريقة أفضل فى ظل الظروف الجديدة وتحت مظلة الاستقلال السياسى المزيف ، حيث تحصل هذه الفئات والعناصر البيروقراطية على رأسمالها ومداخيلها الطفيلية الهائله من مصادر لا علاقة لها بالانتاج والاستثمار ولكنها تتألف ـ كما يذكر عدد من الباحثين السوفيت ـ من الرواتب والتعويضات العالية بشكل غير معقول التى تدفع للشخصيات الحكومية والسياسية التى تشكل النخبة الحاكمة ، ففى الكمرون مثلا حيث لا يتعدى متوسط الدخل السنوى عشرين ألف فرنك للفرد يصل دخل الوزير الى ١٨٥ ألف فرنك شهريا (بفارق مقداره ١١١ ضعفا) وفى الجابون يتلقى رئيس الدولة ٨٠٠ ألف فرنك والوزير ٣٥٠ ألف فرنك ونائب البرلمان ١٥٠ ألف فى الشهر ، فى حين أن متوسط أجور الشعب الشغيل لا يزيد فى هذا البلد عن ٥٠٠ الى ٦٠٠ فرنك فى الشهر (أى بفارق مقداره ١٦٠٠ ضعف) بالنسبة لرئيس الدولة و ٧٠٠ ضعف للوزير و ٣٠٠ ضعف لوكيل البرلمان ، كما تشكل المدفوعات الاضافية عادة نسبة من ١٥ الى ٢٠٪ من الرواتب الأساسية ، ويضيف هؤلاء الباحثين انه يصعب فى الحقيقة حساب هذه المداخيل لأن هناك طرق وأساليب عديدة يستخدمها العاملون فى السياسة والدولة من أجل الوصول الى الثراء الشخصى ، فالدفعة التى يتلقاها الموظف النيجيرى الكبير من أجل بناء وتأثيث منزل له تعادل رواتب عدة سنوات ٣٠ الى ٣٥ ألف جنيه استرلينى ، والوزراء فى الكمرون يتلقون عند السفر الى الخارج بصفة رسمية أو غير رسمية تعويضات انتقال بحدود عشرون ألف فرنك وما فوق فى اليوم الواحد(٣٠) ٠

---

(٣٠) راجع عدد من الباحثين السوفييت : التركيب الطبقى للبلدان النامية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ الى ٢٤٥ ٠

ولم يكن ضعف البناء الطبقى التقليدى والتكامل الاقتصادى والثقافى العميق لهذه الفئات السياسية والعسكرية الجديدة المثقفة وشبه المثقفة مع مستعمرين الأمس وأصدقاء اليوم هما السببين الوحيدين اللذين ساعدا على تكريس هذه الوضعية والوصول بها الى هذا الحد ، اذ أن الطريقة التى حصلت بها هذه المجتمعات على استقلالها منذ مطلع الخمسينات فى شكل قرارات فردية وجماعية كانت تصدرها الأمم المتحدة وتنفذها الدول الاستعمارية فيما يعرف بسلسلة قرارات واتفاقيات انهاء الحماية أو الانتداب دون أن يترافق ذلك مع حركة نضال سياسى وعسكرى وقومى ، هذه الطريقة قد جعلت من الاستقلال عملية شكلية غير ذات دلالة اجتماعية وسياسية عميقة، الا بالنسبة لتلك الفئة التى تسلمت السلطة وورثت امتيازاتها من المستعمر بصورة أكثر ترديا وفسادا ٠

وعلى العكس من ذلك فان الاقطار التى لم تستجب الدول الاستعمارية لقرارات المنظمة الدولية بمنحها الاستقلال أو انهاء الوصاية والحماية عليها فى عقد الخمسينات ، وأضطرت هذه الاقطار الى خـــوض نضال سياسى وعسكرى فى وجه الاستعمار ، فانها قد حصلت فى الستينات والسبعينات على استقلال وطنى أكثر دلالة وعمقـــا وأثارة للبعد الاجتماعى والقومى ، ساعدها على تحديد بعد سياسى واجتماعى أفضل لمرحلة ما بعد الاستقلال ، رغم أن المشاكل الاجتماعية والثقافية التى ورثها الاستعمار لهذه المجتمعات لم تكن بأقل سواء وتعقيدا من غيرها ان لم تكن أكثر ، فالجزائر التى كانت فرنسا تعتبرها الامتداد الجنوبى لأراضيها الوطنية والمستعمرات البرتغالية بصفة عامة « أنجولا وموزمبيق » تقدمان أبرز الأمثلة المقنعة على صدق تلك الحقيقة ، وأخيرا زمبابوى (روديسيا سابقا) والتى عانت من أشكال التفرقة والتمييز والاستيطان العنصرى حتى نهـاية السبعينات ، وحققت انتصارها الوطنى فى بداية الثمانينات ٠

والخلاصة أن نمط المثقفين فى أفريقيا عمـــوما ــ بأستثناء مصر الى حد ما ــ قد جاؤا تعبيرا مباشرا ومتكاملا مع نمط الثقافة الاوربية الى حد كبير ، وأرادو أن ينظروا الى مجتمعاتهم ويحلوا مشاكلها من خـــلال تلك الثقافة أو يشوهوا أوضاعها بهذه الطريقة على الأصح ، خصوصا فيما يتعلق بمجموعة البلدان التى حصلت على استقلالها بموجب قرارات دولية فى أوائل الخمسينات ، حيث لم يكن الوعى الوطنى والقومى قد تبلور من خلال حركة تحرير سياسية وعسكرية بحيث يستطيع هذا الوعى أن يحـد من عملية التشوه الثقافى والاجتماعى على الأقل الذى كان قد لحق بأوضاع هـــذه

المجتمعات ، على غرار ما حدث بالنسبة للمجتمعات التى حصلت على استقلالها فى الستينات والسبعينات وعبر نضالات سياسية وعسكرية قومية كما سبقت الاشارة ٠

كما أن فئة المثقفين السياسيين فى القارة الأفريقية عموما - باستثناء مصر - لم يصدموا بمؤسسات طبقية تقليدية أو تطلعات قومية قوية بعد الاستقلال تحد من طموحاتهم الفكرية ومفاهيمهم الثقافية المشوهة ، اذا ما استثنينا الجزائر والمستعمرات البرتغالية « انجولا وموزامبيق » (سابقا) وزمبابوى (روديسيا سابقا) التى حد فيها النضال المسلح والتطلعات القومية من هذه المشكلة بعد الاستقلال الى حد ما ، الأمر الذى جعل من مجاميعهم السياسية والعسكرية نخبات متميزة عن المجتمع القومى تماما وشديدة الميل الى التسلط الديكتاتورى والامعان الشره فى الترف الاستهلاكى الشخصى والعائلى للسلع الكمالية الاستهلاكية الأجنبية ، جريا وراء التقليد والمحاكاة للنخبات الغربية التى ورثوها اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، الأمر الذى قلل من الفوائد المتواضعة التى كان فى الامكان الحصول عليها من خلال الاستقلال السياسى وعرقل استعادة المجتمع لتوازنه الاجتماعى والطبقى حتى الآن ، وبحدود نسبية اذا ما قورن كل ذلك بما تم فى المجتمعات الآسيوية التى حسمت هذه المشاكل بوضوح وسرعة بعد الاستقلال باستيلاء الطبقة الاقطاعية القديمة أو البرجوازية الجديدة على السلطة أو تحالفهما معا من خلالها ، وأقصاء فئة المثقفين نهائيا وأعادتهم الى مواقعهم القديمة كما سبقت الاشارة فى الصفحات السابقة ٠

ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو أن هذا الوضع المتمايز نسبيا بين الأوضاع الاقتصادية والطبقية فى آسيا وأفريقيا وأنعكاساته المتمايزة أيضا على فئة المثقفين هنا وهناك لا يشكل ميزة ايجابية لآسيا عن افريقيا كما قد يتصور البعض أن لم يكن العكس هو الصحيح فى حالة الاقدام على اجراء تحولات ثورية ، ذلك أنه بالرغم من كل ما وصلت اليه النخبات والدكتاتوريات السياسية والعسكرية الفردية المسيطرة فى أغلب المجتمعات غرب وجنوب الصحراء الأفريقية والمنبثقة من شريحة المثقفين الأوائل ، من حالات التهور والقهر والفساد والافساد السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، الا أن هذه الدكتاتوريات الفردية ستظل بوضعها كذلك « مجرد نخبات أو مراكز قوى فردية أو عائلية » هى أقل كلفة وأضعف شكيمة عند اقتضاء العمل الثورى الناجز لاسقاطها والتخلص منها ، اذا ما قورن ذلك بامكانية اسقاط الطبقات الاقطاعية والكمبرادورية بأكملها فى المجتمع الآسيوى

بصفة عامة ، وفي بعض مجتمعات شرق وشمال أفريقيا نفسها ، خصوصا وأن مثل هذه الطبقات لم تتبلور بعد فى المجتمعات الافريقية غرب وجنوب الصراء الى الحد الذى تتشابه فيه مع المجتمعات الآسيوية ، ولن يتأتا ذلك فى وقت قريب ، حيث ما يزال التركيب الحقيقى والتحتى لهـــذه المجتمعات الأفريقية مشدودا بعمق الى أصوله التقليدية ولم يطراء عليه تغييرا كبيرا ، اذا ما استثنينا الفئات والنخبات السياسية والاقتصـــادية والعسكريـة المسطحة من أعلا فوق هذا المجتمع العريق الذى يحتفظ بمفاتيح المستقبل وزمام كل امكانيات التحول الحقيقى ، والذى بداء بالفعل يجد من أبنائه من يتمثلون واقعه تمثلا تاريخيا واجتماعيا عميقا ويعملون من خلاله ، وان كان الوقت ما يزال مبكرا فى الحكم على موعد ومدى مثل هذا التحول ، الا انه آت لا محالة ، باعتباره القـاعدة التى أفسدتها التشوهات المختلفة وعرقلة ديناميكيتها الجدلية لبعض الوقت ٠

فى أمريكا اللاتينية :

لابد وأن نلاحظ ونحن نســـتعرض أنماطا مختلفة من التشـوهات الاقتصادية والاجتماعية التى لحقت بمجتمعات البلاد النامية من أن الفروق التى تميز شكل هذه التشوهات فى أفريقيا عنها فى آسيا أو أمريكا الاتينية هى فروق نسبية وليست مقطوعة الصلة ببعضها ، خصوصا اذا ما تذكرنا بأن القاسم المشترك بينها جميعا هو الابتزاز الاقتصادى والسيطرة السياسية الاستعمارية ، وان ما نذكره أو نركز عليه فى هـــذا التقسيم من أنماط التشويه الاقتصادى والاجتمـــاعى الذى يميز أفريقيا عن آسيا عن أمريكا اللاتينية انما هو ميل منا الى ابراز أشد وأكثر أنماط التشوه شيوعـــا واختلاف وسائلها فى منطقة ما بالنسبة لأخرى من هذه المناطق بصفة عامة ، أما اذا نظر الى مجموع هذه التشوهات بصفة عامة فاننا نجدها تتداخل مع بعضها فى كل مكان تقريبا عبر هذا العالم المتخلف وبفوارق نسبية قـد تكون حادة فى بعض الحالات بحكم اختلاف الظروف التاريخية والموضوعية٠

واذا كنا قد استوفينا هذا الأمر بعض الشيء بالنسبة لآسيا وأفريقيا فما الذى حدث فى أمريكا اللاتينية ، وبأى أيقاع تم تشويه أوضاع شعوب ومجتمعات هذه المنطقة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحضاريا ، وكيف ؟

لقد تعرضت هذه المجتمعات للغـزو والسيطرة الاستعمارية الأوربية قبل غيرها من المجتمعات الأفرو آسيوية بوقت طويل نسبيا ، بداء مع مطلع القـرن السادس عشر حينما قادت الصـدف الأفواج الأولى من المستكشفين

والغزاة الاوربيين الأوائل من أسبان وبرتغاليين الى هذه المنطقة وهم بصدد البحث عن طريق بحرى يوصلهم الى الهند ، فوجدوا فى هذا العالم الجديد الذى لم يعرفوه من قبل ما هو أكثر أهمية وأغراء من الهند التى يعرفونها وتعرفهم من قبل ، وكان لا يزال التفكير الاوربى فى تلك المرحلة المبكرة مشبعا بالفكر الاقطاعى والكولونيالى ، لذلك فقد كان شديد التهور وغير محدد الاهداف اقتصاديا وسياسيا على نحو ما حدث فيما بعد خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث كان يغلب عليه فى تلك المرحلة فكرة البطولة والقرصنة الدولية وأعمال القتل والابادة والتخريب والنهب والتوطن العنصرى والقومى ، اضافة الى أنواع الأوبئة والميكروبات التى جلبها الاوربيون معهم الى المنطقة والتى لم يكن لها أى وجود فى هذه المجتمعات المتحضرة من قبل ، مثل الجدرى والتيفوس والجذام والطاعون والحماء الصفراء.

وتتضح هذه الحقائق أكثر فأكثر اذا ما تذكرنا بأن أهم الافتراضات شبه المؤكدة قد اشارت الى أنه فى الوقت الذى لم يكن يتجاوز فيه سكان أوربا ستين مليون فى مطلع القرن السادس عشر كان مجموع سكان شعوب ومجتمعات أمريكا اللاتينية (الوسطى والجنوبية) قبل الغزو الاوربى ، أو ما قبل كولومبس كان يتراوح ما بين ثمانين الى مائة مليون نسمة ، حوالى عام ١٥٠٠ . وأصبح هذا الرقم فى عام ١٦٠٥ - كما يذكر بول بايروك - هو عشرة ملايين فقط ، وان تناقص عدد السكان فى المكسيك الوسطى كان أشد قوة : ٢٥ مليون حوالى العام ١٥٠٠ ، فسقط العدد الى مليون واحد حوالى عام ١٦٠٥(٣١) .

ولقد نجمت هذه الابادة - كما يقول بايروك أيضا - عن المفاعيل المتظافرة للمذابح التى رافقت الغزو وتلته ، والاوبئة القتالة التى سببتها الفيروسات والجراثيم التى حملها الاوربيون ولم تكن موجودة بالمرة من قبل فى أمريكا ، مثل الجدرى بخاصة ، وكذلك التيفوس والجذام والطاعون والزحار والحماء الصفراء . وتفاقمت بسبب نظام الاستغلال الكولونيالى فى المناجم والزراعة على حد سواء(٣٢) .

لذلك فقد منيت هذه الشعوب والمجتمعات بأسواء مما منيت به أية مجتمعات أخرى من جراء الغزو الاستعمارى الاوربى ، ذلك أن مجموع مقومات

---

(٣١) بول بايروك : مازق العالم الثالث . ص ٧ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

وجودها الاقتصادى والاجتماعى والحضارى برمته لم تتعرض لعملية سطو وتدمير مباشر حتى الصفر بكل ما لهـــذه الكلمـــة من معناه وليس مجرد الاستغلال فحسب ، بل لقد تعرضت هى ووجودها القومى نفسه لعمليات الابادة الجماعية بالكامل ، حيث لم يبق منها اليوم الا مجرد عينات اجتماعية لا تعنى أكثر من مجرد دالة معينة على آثار أرتكاب أعظم جريمة فى تاريخ البشرية ، وذلك رغم ما كانت تتمتع به هذه المجتمعات من مستوى تقـدم حضارى شامل يتجاوز كثيرا ما كانت عليه المجتمعات الأفريقية ، وذى سمات انسانية عميقة الدلالة بالنسبة لما عرفت به الحضارات الآسيوية والشرقية بعامة ٠

فلقد كانت هذه المجتمعات تتشابه الى حد كبير مع مثيلاتها فى أفريقيا من حيث الأوضاع الاقتصادية ونمط الملكية الجماعية للارض ، وحالة التراتب الاجتماعى فى السلطة والمكانة الاجتماعية التى لم تكن مرتبطة بالملكيـــة الخاصة للارض أو الثروة ، بقدر ما كانت ترتبط بمجمل التنظيم الاجتماعى والدينى والسياسى المقنن من خلال العرف والتقاليد المنبثقة من مجمل أوضاع المجتمع ككل ، والتى تخضع لكثير من الضوابط الاقتصادية الصارمة بالذات على سلوك الفرد الى جانب الضوابط الاجتماعية ٠

واذا كانت مجمل هذه المفاهيم قد تبلورت فى افريقيا وتجسدت من خلال نظام الاسرة والقرابة بالدرجة الأولى ، فأنها قد تبلورت فى مجتمعات أمريكا اللاتينية قبل الغزو وتجسدت من خلال تنظيمات اجتماعية وسياسية أكثر ارتقاء وتطورا وشـــمولية ، تمثلت فيما يطلـــق عليه آستافنهاغن « المتحدات الاجتماعية المحلية » المرتبطة بمتحد قومى أعلا تنبثق من خلالـه سلطات سياسية واجتماعية لدول مركزية قوية وبالغة الدقة والتنظيم وذات مضامين اقتصادية واجتماعية وتقنية ديناميكية متحركة فى اتجاه التقـدم والتطور الذاتى ، فالأمر هنا ـ كما يقول آستافنهاغن ـ كان يتعلق بدول شديدة المركزية تقوم على أساس تنظيم اجتماعى هـــو عبارة عن « متحد اجتماعى » قبلى اقليمى ٠٠٠ قام بفتوحات عسكرية واسعة جـدا ، وكانت الغنائم والاتاوات التى نجمت عن هذه الفتوحات قد أسهمت فى قيام سلطة سياسية واقتصادية لا مثيل لها فى العالم الذى سبق عهد كولومبس ، وفى نشوء بنية طبقية ذات تسلسل هرمى « قومى »(٣٣) ٠ الى الحد الذى يفترض

---

(٣٣) د٠ استافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٤٢ ٠

البعض بأن هذه المجتمعات كانت مهيئة لانجاز ما يشبه « المعجزة » ذات الأبعاد والملامح المتميزة تماما فى التقدم والتطور الاقتصادى والاجتماعى والتقنى فى العصور الحديثة ، لو لم تصب بكارثة البربرية الاوربية التى أفسدت كل شىء فى حياتها · ومما زاد من تفاقم هذا الغزو البربرى الاوربى الذى بدأ بهذه المنطقة وانتهى الى معظم مناطق العالم ، هو أن ما كان يحرك الكولونيالية الاوربية الغازية فى البداية هو - كما يقول بول بايروك - مجرد مصادرة الثروات التى راكمتها خلال قرون الحضارات ما قبل الكولومبية ، وبعد ذلك الاستثمار المنجمى بالمعنى الضيق للتغيير(٣٤) ·

ذلك أن حركة الغزو الاوربية للعالم الجديد لم تكتسب المضمون السياسى والاقتصادى الا بعد أن أحدثت شروخا وكسورا عميقة ، ان لم نقل تدميرا شاملا على الاصح ، لأعماق التكوين الاجتماعى والحضارى لهذه المجتمعات ، وقامت بعملية تسطيح مجتمع أفقى جديد من أعلا « مهجن » ومجلوب عبر الأطلنطى ، على أنقاض المجتمعات الأصلية القديمة ، تفصل بين الاثنين مسافات سياسية واقتصادية وعنصرية وقومية لا تدرك بسهولة · هذا اذا سمح بعملية التتابع وايجاد نقاط تماس حقيقية بين الطرفين ، الأمر الذى ما يزال مشكوكا فى حدوثه حقيقة ، حيث أنه ما لبث هذا المجتمع المسطح أن سار فى اتجاه بلورة أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية صعودا وهبوطا كمجتمع متكامل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، خصوصا بعد حصول هذه المجتمعات على الاستقلال السياسى منذ وقت مبكر فى أواخر القرن التاسع عشر ، والذى تسلمه هذا المجتمع « المسطح والمهجن » من المجتمع (الأم) فى أوربا الاستعمارية ، وكان كل ذلك يحدث بمعزل عن جرثومة المجتمع الأصلى القديم أو رغما عنه على الأصح ، رغم أنه كان ولا يزال - ورغم كل ما لحق على مستوى القرية فى القارتين متشابهة(٣٥) · وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين ·

ولذا فمن الناحية الثقافية تسير أمريكا اللاتينية على العموم فى تيار الحضارة الغربية أكثر مما تسير فيه أفريقيا ، ومع ذلك فان البنى النقابية على مستوى القرية فى القارتين(٣٥) · وهنا تكمن فى تقديرنا جرثومة المستقبل فى كلا القارتين ·

---

(٣٤) بول بايروك : مأزق العالم الثالث ، ص ١٠٠ ·

(٣٥) رودولفو ستافنهاغن : الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية ، ص ٧٨ ·

نخلص من خلال هذا العرض الى امكانية تحـــديد ملامح التشوهات الاجتماعية التى لحقت بهذه المجتمعات الامريكية الاتينية فى :

(أ) تدمير مجتمع قديم تدميرا اقتصاديا وحضاريا وبشريا الى أقصى حد ممكن ، ومحاولة عمل كل شيء بدونه وبمعزل عنه فى أحسن الأحوال ، ومع ذلك فان جرثومته لم تمت نهائيا وما تزال كما وكيفا تتحدى بعمق كل ما يجرى حتى الآن ، وتختزن فى طياتها عبوات اجتماعية ناسفة أن عاجلا أو آجلا ٠

(ب) تستطيع مجتمع (هجين) قليـل التماسك على أنقـاض المجتمع القديم وفرض نفسه كمجتمع بديل شبه متكامل سياسيا واقتصاديا وثقافيا، تربطه ببقايا المجتمع القـــديم علاقات اســـتغلال اقتصادى وقهر ســياسى واجتماعى وقومى وعنصرى الى حد كبير ٠

(جـ) ان الحالات القليلة التى تسمح بانتقال بعض الأفراد من المجتمع الهندى القديم الى المجتمع الجـــديد لا يعنى انتقـال فى السلم الاجتمـاعى والطبقى من أســفل الى أعلى ، بقـــدر ما يعنى فى الأســاس انسلاخ قومى وحضارى من المجتمع القديم بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، والقيـام بعملية اندماج قومى مشوه بالمجتمع الجديد ٠

(د) اذا جاز لنا أن نقبل – تمشـيا مع أكثر الآراء شيوعا وميلا الى الصواب – بأن مجتمعات أمريكا اللاتينية فى ضوء ما سبق تنقسم – ولو مجازا – الى طبقتين ، طبقة واسعة مستغلة ومقهورة ممثلة بالمجتمع الهندى القديم ، وطبقة مستغلة ومسيطرة من المجتمع المهجن والاوربى الجديد ، أو عند الاقتضاء – كما يقول رالف بيلز – البيض والسود ، الا أن تشوهات اجتماعية واقتصادية وقومية ما تزال تحد من الثقة بهذه الفرضية الأقرب الى الواقع وتعرقل من تكامل حركتها وديناميكيتها الجـــدلية الصحيحة فى الوقت الحاضر على الأقل ، وعلى امتداد غير محدد فى المستقبل ٠

ذلك أنه فى الوقت الذى كف فيه المجتمع القديم عن وجوده كمجتمع طبقى متكامل البنيان وتحـــول الى ما يشبه الاقلية أو الأغلبية القـومية المضطهدة سياسيا واقتصاديا وعنصريا الى حد كبير ، فان المجتمع الهجين والمسيطر من أعلى قد أخذ ينقسم على نفسه أنقساما طبقيا رأسيا ، ما بين مستغلين (بكسر الغين) ومستغلين (بفتحها) كما أن المجتمع القديم ما يزال يستمد وجوده من مميزاته الاجتماعية والقومية ونمط معيشته الاقتصادية

أيضا أكثر من كونه أصبح بالفعل يشكل طبقة بروليتارية مستغلة واسعة النطاق ومندمجة فى مجتمع قومى متجانس . وهنا تكمن تشوهات الحاضر اذا تجاوزنا وغضضنا الطرف عن جرائم الماضى ، رغم أن تلك الفرضية الآنفة الذكر يبدو أنها الامكانية الوحيدة التى سيؤل اليها حتما تفسير العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والطبقية تلك المجتمعات فى المستقبل الوشيك الذى لا نستطيع أن نحكم بموعده حتى الآن . ما لم تجد ظروف وتطورات تاريخية وسياسية ثورية تقدمية تعجل من متغيرات التطور وتدفع بها فى الاتجاه الاجتماعى والتاريخى الصحيح .

نمط المثقفين فى أمريكا اللاتينية :

اذا جاز لنا القول بأن السيطرة الاستعمارية فى أفريقيا قد انتهت الى تكوين شريحة اجتماعية محلية لا متجانسة من المثقفين السياسيين والعسكريين والتجار الوسطاء والسماسرة والملاكين العقارين الذين نشؤا فى ظل هذه السيطرة وتكاملوا معها اقتصاديا وثقافيا الى أقصى حد ، وقامت بتسليمهم علم الاستقلال « الكسيح » بعد أن كانت قد قامت بعملية تسطحيهم أفقيا ورأسيا قبل أن ترحل بلحمها ودمها فوق بناء اجتماعى تقليدى عريق ما يزال - كما سبقت الاشارة قبل قليل - يحتفظ بكل أبعاد الحاضر ومفاتيح المستقبل ، اذا جاز لنا أن نؤكد ذلك كحقيقة بديهية بالنسبة لافريقيا فان الأمر قد اختلف كثيرا بالنسبة لامريكا اللاتينية ، حيث بدأت قصة هذا الغزو والسيطرة الاستعمارية مع مجتمعاتها الأصلية فى القرن السادس عشر والسابع عشر بعملية تسطيح مجتمع بأسره ، منتقا ومجلوب عبر المحيط الاطلنطى على أنقاض مجتمع تم تدميره حتى العمق حضاريا وبشريا على نحو ما سبقت الاشارة لتنتهى هذه القضية فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بميلاد مجتمع هجين مشبع بكل خصائص المجتمع الاقطاعى والرأسمالى الأوربى ، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا ، خصوصا ما يتعلق بالجانب العسكرى والادارة الكولونيالية الاوربية التى تشبعت بها الادارة الاستعمارية القديمة فى هذه المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى ، وطبعت أوضاعها السياسية والاقتصادية بهذا الطابع الكولونيالى حتى اليوم.

كما أنه بغض النظر عما لحق بتلك المجتمعات الأصلية من دمار حقيقى فان ثلاثة قرون مليئة بالديناميكية والحركة الاجتماعية المعاصرة والواعية هى كافية لخلق مجتمع مستقر وشبه متكامل من المستوطنين الأوربيين وبعض المحليين ، هو أكثر عقلانية وديناميكية حديثة اذا ما قورن بالمجتمعات

الآسيوية والأفريقية ، الا أن مشكلة هذه المجتمعات الأساسية هى أن مراكز « انتروبول » فى أوربا قديما والولايات المتحدة حديثا قد كانت وما تزال تنظر الى هذه المجتمعات وتعاملها كمجرد توابع مكملة لها اقتصاديا وسياسيا، بل وتفرض عليها ذلك فرضا ما استطاعت الى ذلك سبيلا حتى الآن ٠

وفى ضوء مجمل هذه الظروف لنا أن نتصور أو نفترض كيفية نشأة وتطور فئة مثقفة فى هذه المجتمعات ، ذات خصائص تميزها عن غيرها من فئات مثقفى أفريقيا وآسيا الذين سبق الحديث عنهم ٠ فاذا استرجعنا مجمل التحليلات السابقة حول طبيعة وكيفية الظروف الاجتماعية والتاريخية التى تكونت من خلالها مجتمعات أمريكا اللاتينية الحديثة فأننا نستطيع القول بأن فئة المثقفين المعاصرين فى هذه المجتمعات قد أنبثقت فى غالبيتها من فئات وطبقات المجتمع الجديد « المهجن » ولم تتوفر قنوات أو نقاط عبور للمجتمع الأصلى القديم لكى يشارك فى تكوين هذه الفئة بصفة خاصة وفى مجمل مكونات الحياة العامة الجديدة بصفة عامة الا فى حدود ضيقة للغاية ٠

وحينما حصلت هذه المجتمعات على استقلالها السياسى المبكر خلال القرن التاسع عشر لم تواجه الفئات السياسية المثقفة التى تتصدر دائما مثل هذه الأحداث مشاكل حادة فى اطار التكوين الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المسطح أو « المهجن » الذين يمثلونه بمختلف فئاته وطبقاته ، ولم يضطروا الى الوقوع فى حالات التأزم السياسية والقومية التى وقع فيها المثقفون فى المجتمعات الآسيوية وبعض المجتمعات الأفريقية ، ولا التأزم الثقافى والاقتصادى الذى يمكن اضافته الى ما سبق بالنسبة لأمثالهم فى عموم القارة الأفريقية قبيل وبعد الاستقلال٠ بل لقد كانوا على خلاف ذلك هم أكثر تكيفا وتكاملا مع أوضاعهم الطبقية وارتباطا بها منذ البداية ، ولم يؤدى شعار المطالبة بالاستقلال والحصول عليه الى انتشار حالات من الارتباك الشديد فى الواقع الاقتصادى والطبقى والاجتماعى بصفة عامة على نحو ما حدث فى آسيا وأفريقيا والذى أنعكس بعمق على أوضاع فئة المثقفين فى هذه القارات ، حيث وجد هذا الارباك تعبيره المباشرة من خلالهم ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها :

(أ) ان طبقات المجتمع الجديد الذى فرض نفسه على أنقاض المجتمع القديم فى أمريكا اللاتينية بنمطيها الاقطاعى والبرجوازى كانت هى أكثر ديناميكية ووعيا بمتغيرات العصر وعقلانيته ، بحكم أصولها القومية « المعقلنة» القادمة من أوربا والمشبعة بالتطلعات السياسية والاقتصادية والعلمية المختلفة ، الأمر الذى حال أو حد على الأصح من ظهور فئة المثقفين كفئة أكثر علما وعقلانية ووعيا بالنسبة لأصولهم الطبقية بمسافات لا تدرك على نحو ما

حدث فى آسيا وأفريقيا ، حيث كان يحتل من يجيد القراءة والكتابة مركزا مرموقا وأكبر من حجمه بكثير بين ألوف الأميين من أبناء طبقته أو مجتمعه ككل ، الأمر الذى أدى الى الحد نسبيا من غرور هذه الفئة فى أمريكا اللاتينية وجنبها الى حد ما الوقوع فيما وقعت فيه مثيلاتها فى آسيا وأفريقيا وبحدود نسبية طبعا · حيث ظل الوعى الطبقى سياسيا واقتصاديا هو صمام الأمن الى حد ما فى حياة هذه الفئة ·

(ب) ان الاستقلال الذى حصلت عليه هذه المجتمعات لم يكن استقلالا اجتماعيا وقوميا ، بمعنى استقلال مجتمع من سيطرة مجتمع آخر أو أمة من سيطرة أمة وقومية أخرى ، بحيث يقتضى استثارة وحفز المشاعر القومية والنضالية من خلالها للحصول على مثل هذا الاستقلال ، وحيث يجد المثقفون عادة فرصتهم الذهبية لتصدر الأحداث وتحريكها ، كما حدث فى معظم بلدان آسيا وشرق وشمال آفريقيا ، بل لقد كان أستقلال مجتمعات أمريكا اللاتينية من السيطرة الأوربية هو أشبه ما يكون بالاستقلال الذاتى من الادارة والتبعية المركزية فى نطاق الأمة الواحدة ، مع الاحتفاظ بكل المكونات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، الأمر الذى قلل من أهمية دور فئة المثقفين فى مسألة النضال من أجل الاستقلال والحصول عليه · وكانت أهميته أكبر بالنسبة للطبقات الاقطاعية والبرجوازية ومؤسساتها السياسية والاقتصادية التى خفت تبعيتها وخضوعها للاشراف والرقابة المباشرة لمراكز الامبراطوريات الاستعمارية فى أوربا ·

(ج) ان العاملين الأساسيين السابقين قد أديا الى قوة ارتباط المثقفين بطبقاتهم الاجتماعية بحكم الانحدار الاجتماعى والانتماء السياسى فى الغالب الأعم ، الأمر الذى عزز مواقع هذه الطبقات وفكرها ومصالحها وتناقضاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا ، وقيام المثقفين فى هذه المنطقة من البلدان النامية أو ما صار يعرف ببلدان العالم الثالث بمهمة هى أقرب الى طبيعتهم ودورهم التاريخى الصحيح كادوات تعبيرية عن كل المصالح الطبقية المتناقضة فى المجتمع بأصدق ما يكون التعبير كما يقول لينين ، اذا ما قورنوا بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآن · وهو الأمر الذى يفسر لنا أيضا بأمثالهم فى آسيا وأفريقيا حتى الآن · وهو الأمر الذى يفسر لنا أيضا تأسس بها المجتمع منذ زمن طويل ، كما يفسر لنا فى الوقت نفسه دلالة النضج المتقدم والواعى للطبقات العاملة وتماسكها وتنامى فاعليتها السياسية والاجتماعية والنضالية فى المراحل الأخيرة ، اذا ما قورنت بغيرها فى آسيا وأفريقيا ، وربما تستطيع كل الدلالات السابقة أيضا أن تفسر لنا كل مؤشرات النمو الاقتصادى والاجتماعى التى تتقدم بهما هذه المجتمعات اذا ما قورنت بمثيلاتها فى آسيا وأفريقيا أيضا ·